عِنَـــايَـــةُ السَّلَــفِ بالسُّنَّـــة النبــويَّــة " المعــالــم والمنهـــج "

الدكتـــور/ عبد الله بـــن ضيـــف الله الرحيلـــــيّ

أستاذ مشارك في الحديث وعلومه ــ جامعة طيبة

مُقَدّمَـــــةٌ :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد: فهذه الدراسة أقدِّمها في موضوعٍ في غاية الأهميّة، هو: عناية السلف بالسنّة النبوية: المعـــالم، والمنهج،وقد جاءت طريقة البحث ليست نقلاً، وتجميعاً، وإنما هي استقراء لما كان عليه المحدِّثون مِـــن منهج، ولِما بذلوه مِن جهودٍ مباركة، وفي أثناء هذا نقلتُ بعض النصوص، ووضعتها في مواضعها التي رأيتها مناسبةً، وكان في بعض النصوص المنقولة بعض الأخطاء المطبعية، ونحوها، فأصلحتها، وما كان مِن العبارات قد سقط مِن الكلام أضفتُهُ بين معقوفتين، ولم ألتزم الإشارة إلى ذلك في الحاشية؛ لـــئلا أطيل في أمرٍ، لا يستحق الإطالة.

ونقلتُ كثيراً مِن المنقول عن "سير أعلام النبلاء" عن طريق مختصره: "نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء"، لمحمد حسن عقيل، وتبيّن لي أن هذا التهذيب جهد طيبٌ مشكور، جزى الله صاحبه خـــيراً؛ فقد قرّب السِّيَرَ، مع المحافظة على أهم خصائصه، وهو جانب الرواية، والجانب الحديثيّ، والفوائد عن المترجَمين، وتعليقات الذهبيّ، رحمه الله تعالى.

وقد سبق أن كتبتُ موضوعاً آخرَ، له صلة بهذا الموضوع، عنوانه: "توثيق السُّنَّة النبويَّة: مَلامِحُ عَـــنْ مَنْهَجِهِ، ودلائِله، ومظاهِره"[١].

وسبقني بالكتابة عن موضوع عِنَايَة السَّلَف بالسنّة العلماء الذين كتبوا كتاباتٍ متفرقـــةٍ عـــن هـــذا الموضوع، أو عن جُزئياتٍ منه، وذلك في المؤلفات التي تناولت تاريخ السُّنَّة، وتدوينـــها، ومؤلفـــات الأئمة فيها، ومصطلحات المحدثين، مثلُ:

- "الرسالة المستطرفة لِبيانِ مشهور كتب السُّنة المشرفة"، للكتاني[٢].

---

(١) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، العدد الأربعون، شوال، ١٤٢٣هـ، ص ٣٢٩-٤٠٤.

(٢) دمشق، دار الفكر، ط.٣، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م، وقد طُبع عدة طبعات بعد هذه الطبعة.

- و"فِهْرِسْتْ"، ابن خير[٣]، الذي اشتمل على أسماء ،كثيرٍ من كُتُب الحديث وأسانيدها من مؤلفات أهل المشرق، التي يرويها بالسند عن مؤلفيها.
- "عناية المحدثين بتوثيق المرويات"، د.أحمد محمد نور سيف[٤]، وهو رسالة صغيرة، تتناول طرُق المحدِّثين في صيانة المصنفات، والدّقة في نقْلها بعيداً عن العبث، والتحريف، والتزوير.
- "توثيق النصوص وضبطها عند المحدِّثين"، د.موفق عبد القادر[٥]، وهو يتناول أصول المحدِّثين وطرائقهم، واصطلاحاتهم في نَسْخ الكتب، وطريقة تحقيق الكتب.

ولابدّ أن أُشير هنا أيضاً إلى أن أصل هذا الموضوع كان محاضرةً ألقيتها في مدينة جدة، بدعوةٍ مِن مركز الدعوة والإرشاد بها، جزاهم الله خير الجزاء على ما تسببوا به في كتابة هذا الموضوع.

كما أُشير إلى أنني اضطررتُ إلى شيءٍ مِن الحذف والاختصار في هذا الموضوع؛ وذلك نظراً لضيق المساحة المخصصة للبحوث عادةً في الدوريات العلمية.

ولعل أهم ما أردته في منهج البحث أن أجمع الموضوع من مختلف أطرافه، وأن أُورد كلام المحدِّثين، ومواقفهم، وأن أقرأ ذلك قراءةً جديدة، مِن خلال النظر في مودّاه، ولوازمه، ومقتضياته في حفظ السنة، والعناية بها، ولذلك لم أقتصر على إيراد شروط المحدثين لقبول الحديث، مثلاً وإنما قرأتها قراءةً جديدة لم أرها في شيءٍ من الدراسات في التخصص، ومما أضفتُهُ بالبحث كذلك ما فكّرت فيه، ونفّذتُهُ من إحصاءات لمؤلفات بعض المحدّثين، وعدد أوراقها، وما إلى ذلك مِن إحصاءات، وربطتُها بلازمها، ودلالاتها في خدمتهم للسنة النبوية وعنايتهم بها، ومما عُنِيتُ به كذلك لَفْتُ الأنظار إلى أهمية الاستثمار لعددٍ مِن علوم الحديث في التربية، والتهذيب، والتزكية، إضافةً إلى توثيق الحديث، وعُنِيتُ بصياغة البحث صياغةً تَخدمُ هذا الهدف، فجاءت لغةُ البحث، وأسلوبه مختلفَيْن عما اعتاده الناس مِن صرامة لغة علوم الحديث، وأسلوبها،وجفاف عبارتها.

---

(٣) وهو فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي، (٥٠٢-٥٧٥هـ) (١١٠٨-١١٧٩م)، نشره "فرنسشكه قداره زيدين"، وتلميذه "خليان ربَارة طرغوه"، ط.٢، ١٢٨٢هـ-١٩٦٣م.

(٤) بيروت، دار المأمون، ط.الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٥) مكة المكرمة، المكتبة المكية، ط.الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

وآمل أن أكون قد فتحتُ أبواباً للمتخصصين تحتاج إلى مواصلة البحث، والدرس، وذلك من خـــلال عددٍ من العناوين، منها على سبيل المثال: تلك الأنواع من الإحصاءات التي ذكرتها في موضعها...إلخ.

وقد جاء الموضوع في عناصر عامة وفق الآتي:

المقدمة: *اشتملت على أهمية الموضوع ، ومنهج البحث، وأهم عناصره، وتوطئـــة، اشـــتملت علـــى: تسلسل الأبناء مع الآباء في أداء هذه المهمة، ومعنى السنة في هذا الموضوع.*

المبحث الأوّل: *وصْف المحدِّثين، وأقوالهم عن مهمّتهم :*

المطلب الأول: *وصْفُ المحدّثين.*

مِن أخلاقهم في الرواية.

سَعَةُ حفظِهم.

حِرْصهم على الحديث الواحد.

المطلب الثاني: *من أقوالهم عن مهمتهم.*

المبحث الثاني: إحصاءاتٌ تَرْوِي الحقيقة، (وفيه عدد من الإحصاءات عن مؤلفاتِ عدد من الأئمة).

المبحث الثالث: مظاهر عنايتهم بالسنة.

المطلب الأول: *إجمالٌ لمظاهر عنايتهم بالسنّة.*

المطلب الثاني: *رحلاتهم وتَضْحياتهم في طلب الحديث.*

المطلب الثالث: *عناوين تَرْوِي الحقيقة.*

المبحث الرابع: منهج عنايتهم بالسنّة.

خاتمةُ هذا الموضوع.

أسأله تعالى أن يَنفع بهذه الوريقات، وأن يَكتب لي ما بذلتُه فيها مِن جهدٍ وأوقات، وأن يَجعلها حجةً لي، لا عليَّ، وأن يجعلها مباركةً متقبَّلةً، إنّ ربي لطيفٌ لِما يشاء.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين.

عناية السلف بالسُّنّة النبويّة: المعالم والمنهج

توطئـــة:

الحمد لله رب العالمين كما ينبغي له، والصلاة، والسلام على رسوله، وعلى آله، وأصحابه أجمعين. أمّا بعد: فأنا عاجز، ومعترف بعجزي، عن محاولة التعريف بجهود السلف تجاه حديث رسول الله صلى الله علية وسلم تعريفاً يَفِي بنقْل الحقيقة!فعن ماذا نتحدث؟!عن ماذا نتحدث من جهودهم تجاه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! إن المقام واسع!فهل نتحدث عن الراحلين على أقدامهم من بلدٍ إلى بلد طلباً لسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشيوخ، الذين قد يظفر أحدهم بمطلبه، وقد يفوته ذلك-إذا وصل إلى بلد الرحلة-لسفر الشيخ، أو لوفاته، فإذا وَصَلَ هذا المرتحل من أجل ذلك الشيخ، إلى بلد الشيخ، وسأل عنه قالوا له: رحمه الله، قد توفي!.

أو نتحدث عن سعة حفظهم للروايات؟

أو نتحدث عن كثرة الحاضرين في مجالس التحديث؟

أو نتحدث عن كثرة عدد شيوخ بعضهم؟

أو نتحدث عن مؤلفاتهم؟

أو نتحدث عن أخلاقهم؟

أو نتحدث عن منهجهم؟

أو نتحدث عن قصصهم وشِيَمهم في الحرص على حديث رسول الله صلى الله علية وسلم؟.

أو نتحدث عن تحمّلهم شدة الحياة وشَظَفَ العيش في سبيل حديث رسول الله صلى الله علية وسلم؟

أو نتحدث عن اختباراتهم في مجال سماع الحديث وأدائه؟

أو نتحدث عن نفقاتهم في طلب حديث رسول الله صلى الله علية وسلم؟إلى آخر ما هنالك.

إن المقام واسع، فلْنُشِرْ إشارات، ونقف عند بعض المباحث بعض الوقفات.

تسلسلُ الأبناء مع الآباء في أداء هذه المهمة:

لقد تسلسل أبناء الصحابة رضوان الله عليهم مع آبائهم في أداء هذه المهمة، يتلقى منهم الخالف عن السالف، والابن عن أبيه؛ فكثير من علماء التابعين هم من أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، وأبناءُ الصحابة جُلّهم -إن لم يكونوا كلهم- قد أصبحوا علماء،ثم جرى على هذه الحال التابعون، فمن بعدهم، مع أبنائهم،وكم من بيتٍ قد أصبح أفراده جميعا علماء!.وكم من عالِمٍ متميز قد أصبح ابنه

مثله، أو فاقَهُ!

فهذا الإمام أبو حاتم الرازي الحافظ المحدّث الكبير قد أخذ ابنه أبو محمد عبد الرحمن عنه الحديث، وعن عمه أبي زرعة الرازي. وقد كَتَبَ -فيما كتب- ترجمةً حسنةً لكلٍ من أبيه وعمه.

وهذا سفيان بن سعيد الثوري قد أخذ العلم عن والده المحدِّث الصادق سعيد بن مسروق الثوري.

وهذا الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي أبناؤه كلهم علماء! وماذا أُعدد مِنْ هذا؟! لا نستطيع الحصر، ولكنها مجرّد إشارة إلى الظاهرة فقط، وعند هذا المقام ينبغي أن نتساءل: في ماذا يتسلسل الأبناء والآباء اليوم من الأعمال، والأحوال؟! ما أحوجنا إلى التأمل والمحاسبة!.

معنى السنة في هذا الموضوع:

أُطْلِقَ اللفظُ السنّة على معانٍ، منها ما يلي:

السنة: بمعنى: الشِّق الثاني من الوحي الإلــهي، وهي ما ثبت عن النبي صلى الله علية وسلم غير القرآن، من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف خَلْقي، أو خُلُقيّ، أو هم به، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها، يقظة أو مناما[٦].

كما أطلق اللفظ (السنة) على ما تداوله الفقهاء، بمعنى السنة التي هي في مقابل الفرض، والواجب من المأمورات الشرعية. وهي: كل ما أَمر به النبي صلى الله علية وسلم أو داوم عليه، مما ليس بفرض ولا واجب؛ وقد عني السلف الصالح من أئمة هذا الدين بالسنة بهذين المعنيين، على مختلف الأعصار والأمصار، وتخصص بكلٍ منهما لفيف من الأئمة المحققين، يَخْلف بعضهم بعضا في كل عصر ومصر، من لدن زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا.

وأتناول فيما يلي بالبحث، والبيان موضوع عناية أئمة السلف الصالح بالسنة بهذين المعنيين، وأقدّم أولا الحديث عن جهودهم المتعلقة بالسنة بالمعنى الأول، التي هي الراوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٦) انظر: فتح الباري، ١٣/٢٤٥، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، لأبي شهبة، ١٦، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للسباعي، ٤٧، دراسات في الحديث النبوي، محمد مصطفى الأعظمي، ص١.

المبحث الأوّل:

وصْف المحدِّثين، وأقوالهم عن مهمّتهم

المطلب الأول: وصْفُ المحدّثين:

ساقَ الإمام ابن حبان في "المجروحين" بالسند إلى ((محمد بن منصور، قال: مرّ أحمد بن حنبل رحمه الله، على نفرٍ من أصحاب الحديث، وهم يَعْرضون كتاباً لهم، فقال: ما أحبَّ هؤلاء إلا محمد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة...)[(٧)]. – قال أبو حاتم – ومَنْ أحقُّ بهذا التأويل من قومٍ فارقوا الأهل، والأوطان، وقَنِعوا بالكِسَرِ والأطمار، في طلب السنن والآثار، وطلبِ الحديث والأخبار، يجولون في البراري والقفار، ولا يبالون بالبؤس والإقتار، متّبعون لآثار السلف من الماضين، والسالكون ثَبَجَ[(٨)] محجّة الصالحين، وردِّ الكذب عن رسول رب العالمين، وذبٍّ الزور عنه حتى وَضَحَ للمسلمين المنار، وتَبيّن الصحيح من بين الموضوع، والزور من الآثار.

وأرجو أن لا يكون من هذه الأمة في الجنة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أقربَ من هذه الطائفة[(٩)]؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة)[(١٠)]. وليس في هذه الأمّة

---

(٧) هذا لفظ الحديث الذي ساقه به ابن حبان في "المجروحين" ١/ ٨٩، ومثله في المستدرك للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ٤/ ٤٩٦، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرّجاه"، ووافقه الذهبي في تلخيصه، وأخرجه غيره. وجاء الحديث بألفاظ أخرى في عدد من المصادر، منها الصحيحان، جاء بأكثر من لفظ فيهما، يُنظر صحيح البخاري، الحديث رقم ٧٣١١، الاعتصام بالكتاب والسنة، وصحيح مسلم، ١٠٣٧، و١٩٢٠، و١٩٢٣، الإيمان، وصحيح ابن حبان، (نسخة الإحسان، بتحقيق كمال يوسف الحوت، ١٤٠٧هـ)، ١/١٤٠، و ٨/ ٢٨٩، و٢٩٥.

(٨) أي وسط طريقهم، ومنه حديث: (قومٌ يركبون ثبج هذا البحر)، أي وسطه ومعظمه، يُنظر "النهاية في غريب الحديث والأثر"، لابن الأثير، ١/ ٢٠٦، "ثبج".

(٩) أيْ طائفة المحدثين، وقد أشار إلى هذا المعنى في صحيحه (نسخة الإحسان)، ٢/١٣٣، رقم ٩٠٨. حيث قال: "في هذا الخبر دليل على أنّ أَوْلى الناس برسول الله ﷺ في يوم القيامة يكون أصحاب الحديث؛ إذ ليس من هذه الأمّة قومٌ أكثرَ صلاةً عليه ﷺ منهم".

(١٠) أخرجه الترمذي ٤٨٤، أبواب الصلاة، ٢/٣٥٤، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وابن حبان في صحيحه، ٩٠٨، ٢/١٣٣، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم ٤٨٨.

طائفة أكثر صلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الطائفة؛ فهم على وجوههم في هـذه الدنيا يهيمون، وبتعلم السنن ينعمون، وعلى حسن الاستقامة يدورون، وأهلَ الزيغ والآراء يقمعون، وعلى السداد في السنة يموتون، وعلى الخيرات في العُقبى يَقْدمون، أولئك حزب الله، ألا إن حـزب الله هم المفلحون))[11].

وقال الإمام أبو حاتم ابن حبان بعد أن ذكر حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تأخذوا العلم إلا ممن تجيزون شهادته): "هذا خبر باطل رفعه، وإنما هو قول ابن عباس، فرفعه حفص بن عمر هذا، ولسنا نستجيز أن نحتج بخبرٍ، لا يصح من جهة النقل في شيء من كتبنا، ولأن فيما يصح من الأخبار بحمد الله، ومنِّه [ما] يغني عن الاحتجاج في الدين بما لا يصح منها، ولو لم يكـن الإسـناد وطلب هذه الطائفة له لظهر في هذه الأمة من تبديل الدين ما ظهر في سائر الأمم، وذاك أنه لم يكن أمة لنبي قط حَفِظت عليه الدين عن التبديل ما حفظت هذه الأمة، حتى لا يتهيأ أن يزاد في سنةٍ من سـنن رسول الله صلى الله عليه وسلم أِلفٌ، ولا واو، كما لا يتهيأ زيادة مثله في القرآن، فَحَفِظت هذه الطائفـة السنن على المسلمين، وكَثُرَتْ عنايتهم بأمر الدين، ولولاهم لقال من شاء بما شاء"[12].

وقال الإمام أبو حاتم ابن حبان، أيضا : "ثم أَخَذَ عن هؤلاء مسلك الانتقاد في الأخبار، وانتقاء الرجال في الآثار جماعة منهم: محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، وأبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد الرازي، ومحمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، ومسـلم بـن الحجـاج النيسابوري، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، في جماعة من أقرانهم، وأمعنوا في الحفظ، وأكثروا في الكتابة، وأفرطوا في الرحلة،وواظبوا على السنة، والمذاكرة، والتصنيف، والمدارسة، حتى أخذ عنـهم من نشأ بعدهم من شيوخنا هذا المذهب، وسلكوا هذا المسلك.حتى إن أحدهم لو سئل عـن عـدد الأحرف في السنن لكل سُنّة منها عدّها عدّاً، ولو زيد فيها أَلِفٌ، أو واوٌ لأخرجها طوعا ولأظهرهـا ديانة، ولولاهم لَدَرَسَت الآثار، واضْمَحلت الأخبار، وعلا أهل الضلالة والهوى، وارتفع أهـل البـدع والعماء، فهم لأهل البدع قامعون، بالسنن شأْنهم دامغون.

(١١) المجروحين، لابن حبان:١/٨٩.

(١٢) المجروحين، لابن حبان، ١/٢٥.

حتى إذا قال وكيع بن الجراح: حدثنا النضر عن عكرمة: مَيَّزوا حديث النضر بن عربي من النضر الخزاز، أحدهما ضعيف والآخر ثقة، وقد رَويا جميعا عن عكرمة، وروى وكيع عنهما.

وحتى إذا قال حفص بن غياث: حدثنا أشعث عن الحسن، مَيَّزوا حديث أشعث بن عبد الملك من أشعث بن سوَّار، وأحدهما ثقة والآخر ضعيف، وقد رَويا جميعا عن الحسن، وروى عنهما حفص بن غياث.

وحتى إذا قال عبد الرزاق: حدثنا عبيد الله عن نافع، وعبد الله عن نافع، مَيَّزوا حديث هذا من حديث ذاك؛ لأن أحدهما ثقة والآخر ضعيف، فإن أسقط مِن اسم عبيد الله "ياء" علموا أنه من حديث عبد الله بن عمر، وإذا زيد في اسم عبد الله "ياء" قالوا هذا من حديث عبيد الله بن عمر، حتى خلّصوا الصحيح من السقيم.

وإذا قال ابن أبي عدي: حدثنا شعبة عن قتادة، وحدثنا سعيد، عن قتادة، فإذا الْتَزَقَ طرف الدال في بعض الكتب حتى يصير سعيدٌ شعبةً، خلّصوه، وقالوا: ليس هذا من حديث شعبة، إنما هو لسعيد، وإن انفتح من الهاء فَرجة حتى صار شعبة سعيدا ميزوه، وقالوا: ليس هذا من حديث سعيد، هذا من حديث شعبة.

وإذا كان الحديث عند ابن أبي عدي، ويزيد بن زريع، وغُندر، عن سعيد وشعبة جميعا عن قتادة مَيَّزوه، حتى خلّصوا ما عند يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة، مما عند غندر عن شعبة عن قتادة؛ لأن سعيدا اختلط في آخر عمره؛ فليس حديث المتأخرين عنه بمستقيم، وشعبة إمام متقن، ما اختلط، ولا تغير.

وإذا قال عبيد الله بن موسى: حدثنا سفيان بن منصور، وحدثنا شيبان عن منصور، ميزوا بين ما انفرد به الثوري عن منصور، وبين ما انفرد به شيبان عن منصور، حتى إذا صَغُرت الفاء من سفيان في الكتابة؛ واشتَبَهَتْ بشَيْبان مَيَّزوا، وقالوا: هذا من حديث سفيان، لا شيبان، وإذا عَظُمت الياء من شيبان، حتى صار شبيها بسفيان قالوا: هذا من حديث شيبان، لا سفيان، ومَيَّزوا بين ما روى عبيد الله بن موسى عن شيبان عن معمر، وبين ما روى عن سفيان عن معمر في أشباه هذا مما يكثر ذكره.

ومن كانت همته في هذا الشأن، ومواظبته على هذه الصناعة بحسب ما ذكرت لم ينكر لواحد منهم أن يجرح الضعيف، ويقدح في الواهي من الرواة، والمحدثين، ومَن لم يطلب العلم من مَظَانّه، ولا دار في الحقيقة على أطرافه يعيبهم إذا قالوا: فلان ضعيف، وفلان ليس بشيء لجهلهم بصناعة الأخبار، وقلة

معرفتهم بالطرق للآثار، ولو أهم وفقوا لإصابة الحق علموا أن السنة تُصَرِّح بإباحة ما ذهبوا إليه من الإطلاق على من صح عندهم الجرح والقدح))[١٣].

وقال الإمام الذهبي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله المروزي:

((وَلِيَ قضاء القُضاة بنيسابور في سنة ثمان، وثلاث مئة، إلى أن استعفَى سنة إحدى عشرة، وردَّ خريطَة الحُكم إلى الرئيس أبي الفضلِ البَلْعَميِّ، فما شرب لأحد ماءً، ولا ظُفِرَ له بزلَّة، وكان لا يدعُ سماعَ الحديث أيامَ قضائه، ويحضر مجلسَ أبي العبّاس السَّراج))[١٤]. وفي هذا دلالةٌ على شدّة العناية بالحديث، وشدة الحرص على سماعه، فلم يَشغله عنه ما كان فيه مِن منصب القضاء! وهذا بغضّ النظر عن مدى مكانته في الحديث؛ إذْ هذا المسلك منه يكفينا، رحمه الله تعالى.

مِن أخلاقهم في الرواية:

- ((قال علي بن خشرم: سمعت وكيعا[١٥] يقول: لا يَكْمُلُ الرجُلُ حتى يكتبَ عمّن هو فوقَه وعمَّن هو مثله، وعمن هو دونه)) [١٦].

سَعَةُ حفظِهم:

- "وقال إسحاق بن راهويه: حفظي وحفظ ابن المبارك تكلفٌ، وحفْظ وكيع أَصْليٌّ؛ قام وكيع يوما قائما، ووضع يده على الحائط ، وحدّث سبع مئة حديث حفظا"[١٧].
- ((قال علي بن خشرم: ما رأيت بيد وكيعٍ كتابا قط، إنما هو حفظٌ؛ فسألته عن أدوية الحفظ، فقال: إن علّمتُك الدواء استعملتَه؟. قلتُ: إي والله. قال: ترْكُ المعاصي، ما جرّبتُ مثله للحفظ))[١٨].

---

(١٣) المجروحين، لابن حبان، ١/٥٧-٦٠، بعد تصحيح الأخطاء الواقعة في النص.

(١٤) سير أعلام النبلاء، للذهبيّ، ("نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء"): ٢/١٠٦٠.

(١٥) هو وكيع بن الجرّاح بن مليح، ١٢٩-١٩٧هـ، قال عنه الذهبي: "وكان مِن بحور العلم وأئمة الحفظ". ترجمَتُهُ في سير أعلام النبلاء: ٩/١٤٠- ١٦٨. ومَن وَقف على ترجمته عَرف قدره.

(١٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٧٠٠. وهذا القول قد أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء، ٩/١٥٩، مصرِّحاً فيه علي بن خشرم بالسماع، كما ترى-وهو ثقةٌ- ولم يُعَلِّق عليه بتضيفٍ كما هي عادته في التعليق على الروايات التي لا تصحّ عنده.

(١٧) الجرح والتعديل (تقْدمته)، ٢٢١، ونحوه في: نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٩٩.

(١٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٩٨.

- قال الإمام الذهبي في ترجمة عبد الله بن وهب بن مسلم الحافظ شيخ الإسلام: "قلت: أكثرَ في تواليفه من المقاطيع، والمعضلات، وأكثر عن ابن سمعان[19] وبابَتِه، وقد تَمَعْقَلَ بعضُ الأئمة على ابن وهب في أخذه للحديث، وأنه كان يترخص في الأخذ، وسواء ترخص، ورأى ذلك سائغا ، أو تشدَّد، فمن يروي مئة ألف حديث، ويَنْدُرُ المنكَرُ في سعةِ ما روى فإليه المنتهى في الإتقان"[20]. قلتُ: المقصود من هذا بيان سعةِ الحفظ عند هذا الإمام الجهبَذ، وأمّا هذا الذي استدركه عليه الإمام الذهبي مِن روايته للأحاديث المنقطعة والمعضلة وعن غير الثقات فإنّ بيانه هنا مِن قبيل الإنصاف، والموضوعيةِ معا ؛ فهو يَذْكر النقدَ إلى جانب الثناء عليه والشهادة الغالية له هذه، ومَن أراد أن يَعْرِف قدْر هذا الإمام فعليه بالرجوع إلى ترجمته، على سبيل المثال، في سير أعلام النبلاء![21].
- "قال أبو أحمد حُسَيْنَك: سمعت إمام الأئمة أبا بكر يَحكي عن عليّ بن خَشْرَم، عن ابن راهويه، أنه قال: أحفظ سبعين ألف حديث، فقلت لابن خزيمة: كم يحفظ الشيخ؟ فضربني على رأسي، وقال: ما أكثَرَ فضولَك! ثم قال: يا بُنيّ! ما كتبتُ سوداء في بياض إلا وأنا أعرفه"[22].
- وهذا أحمد ابن الفرات بن خالد الضبي أبو مسعود الرازي الحافظ أحد الأعلام، قال: "كتبت ألف ألف وخمسمائة ألف"[23].

وفي تهذيب التهذيب: "قال إبراهيم بن محمد الطَّيّان: سمعت أبا مسعود يقول: كتبتُ عن ألفٍ وسبع مئة وخمسين رجلا، أدخلتُ في تصنيفي ثلاث مائة وعشرة، وعَطَّلْتُ سائرَ ذلك"[24].

وقال ابن حجر أيضاً: "وذكره ابن حِبَّان في "الثقات" وقال: كان ممن رحل، وجمع،وصَنَّف، وحَفِظ، وذَاكر، وواظبَ على لزوم السنن، والذَّبَّ عنها. ثم أَسنَدَ عن أبي بكر بن أبي شيبة أنه قال:

(١٩) هو: عبد الله بن زياد بن سمعان المدني، ضعّفه بعضهم، ورماه بعض بالكذب، وقال بعضهم بأنه متروك. تُنظر ترجمته في "تهذيب الكمال، ١٤/ ٥٣١، و"تهذيب التهذيب"، ٢/ ٢٣٦-٢٣٨.

(٢٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٧٠٧-٧٠٨.

(٢١) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٢٢٣-٢٣٤.

(٢٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٠٤٩.

(٢٣) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، ١١/١.

(٢٤) تهذيب التهذيب، ٤٠/١.

أحفظُ من رأيتُ في الدُّنيا ثلاثةٌ: أبو مسعود، وأبو زُرْعَة، وابنُ وَارَة. وحدَّث عنه شَيْخُهُ عبدُ الرزاق، وكان أبو مسعود يقول: إنه كان يكرِّر عليَّ كلَّ حديثٍ خمس مئة مرة"[٢٥].

حِرْصهم على الحديث الواحد:

في ترجمة عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي الإمام- قال الذهبي: ((ومن حديثه: (عبد الله الدارمي)، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا سليمان بن بلال، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن النبي صلى الله علية وسلم، قال: (نعم الإدام الخلُّ).هذا حديثٌ صحيح غريب فردٌ على شرط الشيخين، وانفرد مسلم به، ورواه أيضا أبو عيسى في "جامعه" كلاهما عن أبي محمد الدارمي.وقد كان الدارمي يُقصَد في رواية هذا الحديث لتفرُّده به، قال: فكان يُدَقُّ عليَّ الباب وأنا ببغداد، فأقول: مَنْ ذا؟، فيقال: يحيى بن حسان: نِعم الإدام الخلّ[٢٦]".

المطلب الثاني: من أقوالهم عن مهمتهم:

((قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله علية وسلم وأصحابه؟!) [٢٧]

قال يحيى بن محمد الذهلي: ((دخلتُ على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في بيتِ كتبه[٢٨]، وبين يديه السراج، وهو يُصنِّفُ، فقلت: يا أبتِ! هذا وقت الصلاة، ودخان هذا السراج بالنهار، فلو نَفّستَ عن نفسك. قال: يا بُنيّ! تقول لي هذا، وأنا مع رسول الله صلى الله علية وسلم وأصحابه، والتابعين!!))[٢٩].

وقال الإمام الدارقطني: ((يا أهل بغداد! لا تظنوا أن أحدا منكم يَقْدِرُ أن يكذب على رسول الله صلى

(٢٥) تهذيب التهذيب، ١/٤٠.

(٢٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٨٥. وانظر: رحلاتهم، وتضحياتهم في طلب الحديث، من هذا البحث. والحديث أخرجه مسلمٌ برقم ٢٠٥١، عن عائشة بلفظ: (نِعْم االأُدُمُ، أو الإدامُ الخلُّ)، وفي لفظٍ عنده: (نِعْمَ الأُدُمُ)، (بدون شكٍّ).، وفي لفظٍ عنده، عن جابر بن عبد الله، بالتكرار (نِعْمَ الأُدُمُ الخل، نِعْمَ الأُدُمُ الخل)، وأخرجه غيره.

(٢٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٦٥٤.

(٢٨) أي مكتبته.

(٢٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٨٨ .

الله عليه وسلم وأنا حيّ))!.

ومن أقوالهم عن محابرهم، التي تكاد تكون هي شعارهم، ووسيلتهم لأداء مهمتهم ما قد قاله قائلـــهم: ((مع المحبرة إلى المقبرة))!وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ -ورأى أصحاب الحديث-: ((اجهدوا أن لا تَلْقَوُا الله إلا ومعكم المحابر))[٣٠].

وسُئل سهلٌ: إلى متى يَكتب الرجل الحديث؟.قال: حتى يموت، ويُصَبَّ باقي حبره في قبره))![٣١].وقال عبد الله بن المبارك: ((الحبر في ثوب الرجل خَلوق العلماء))[٣٢].

وقال إبراهيم النخعيّ: ((من المروءة أن يُرى في ثوب الرجل وشفتيه مدادٌ))![٣٣]. وهذا ليس على إطلاقه، بل قاله – رحمه الله تعالى – تسليةً لمن رآه على هذه الحال، والله أعلم؛ فهو هزلٌ في صورة جدٍّ، أو جدٌّ في صورة هزْل.[٣٤].

- قال محمد بن علي بن طاهر: ((كُنت يوما أقرأ على أبي إسحاق الحبَّال جزءا، فجاءني رجلٌ مـــن أهل بلدي، وأسرَّ إليّ كلاما قال فيه: إن أخاك قد وصل من الشام، وذلك بعدَ دخول الترك بيت المقدس، وقتل الناس بها، فأخذتُ في القراءة، فاختلطت عليَّ السطور، و لم يُمكني أقرأ، فقال أبـــو إسحاق: ما لك؟ قُلت : خير، قال: لابُدَّ أن تُخبرني، فأخبرتُه، فقال: وكم لك لم تـــر أخـــاك؟ قلتُ: سنين، قال: ولِمَ لا تذهبُ إليه؟ قلت: حتى أُتِمَّ الجزءَ، قال: ما أعظمَ حرصَكم يـــا أهـــل الحديث، قد تَمَّ المجلس، وصلّى الله على محمد. وانصرف))[٣٥].

(٣٠)نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٨٠.

(٣١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٨٠.

(٣٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٥٨.

(٣٣) مقدّمة ابن الصلاح: ١٧٩، تحت "النوع الخامس والعشرون: في كتابة الحديث وكيفية ضبط الكتاب وتقييـــده"، وهو عند القاضي عياض، في "الإلماع"، بتحقيق السيد صقر، ١٧٣، وعند غيرهما.

(٣٤) وإنْ لم يتنبّه لهذا المغزى ابن الصلاح، على ما يبدو، فعلّق على قول النخعيّ هذا بقوله: "ومِن أغربها -مـــع أنـــه أسلمها..." إلى آخره؛ فحَمَله على الجدّ.

(٣٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٣٦٢/٣.

المبحث الثاني:

إحصاءاتٌ تَرْوِي الحقيقة

تمهيـــــد:

ومما يعرّفك أيضا بجهود أولئك الأماثل الأفاضل مِن الأسلاف الصالحين مِن محدّثي هذه الأمة، الاطلاع على طَرَفٍ مِن الإحصاءات التالية:

- أن تقف على طرفٍ، ولو مختصرٍ- من الإحصاءات التي تروي لك الحقيقة عن حـــالهم في العنايـــة بتراث النبوة الخاتمة، ومحافظتهم عليه.

  ومن هذه الإحصاءات مثلا:

- حصْر (أنموذج) لعددِ شيوخ بعضهم، وعدد تلاميذهم، ومعرفة أعلى ما عُدّ من ذلك، وتصوُّر كم يتكرر هذا الأنموذج في البلدان، والأزمان في تاريخ الإسلام، فإن هذا يُبرِز مبلغ عنايتهم برواية الحديث، وسماعــه وإسماعه.
- حصْر أنواع مؤلفاهم، وأسمائها.
- حصْر عدد مؤلفاهم، وعدد مؤلفات المكثر منهم.
- حصْر عدد أوراق مؤلفاهم، وصفحاهَا، وما كتبه الواحد المكثر منهم من الصفحات.
- حصْر عدد الأحاديث التي رواها المكثر منهم.
- حصْر عدد الأحاديث التي حفظها بعض الأئمة.
- حصْر عدد المجالس التي كان يعقدها بعض الأئمة في اليوم ومعدَّلها.
- حصْرٌ لمقدار ما قرأه بعض الأئمة، والوقوف على الكمية المدهشة من ذلك.

إنّ مثْل هذه الإحصاءات عن جهود بعضهم تُوقفنا على حالهم، وجهودهم، وعلى تصوِّر التاريخ كيف كان، وذلك عن طريق تَخيّلِ كم يتكرر هذا الأُنموذج بالنظر إلى تاريخهم.

وإنّ مثْل هذه الإحصاءات الدقيقة تتكلم فيها الأرقام عن الواقع، وعند التثبت في تحديد هذه الأرقـــام فإنه لا مجال للعاطفة الجامحة عندئذٍ.وإليك بعضاً من هذه الإحصاءات في المطالِب التالية، بحســـب مـــا يتيسر لي منها الآن.

الفرع الأول: توطئة عن مؤلفاتهم في الحديث:

لقد تعددتْ مؤلفات المحدثين في الحديث، وعلومه، ومصطلحه، وتفننوا فيهــا، وفي موضــوعاتها، وفي طرائق تصنيفها، وترتيبها، وفي توثيقها. كل ذلك خدمةً لثلاثة أهداف أساسية، هي:

- توثيق الرواية عن النبي صلى الله علية وسلم وحفْظها من الضياع أو التحريف.
- العمل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتعبد لله به.
- نشْرُ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقديمه للناس، وتعليمهم إيــاه بمختلــف الطــرق، والوسائل الصحيحة الممكنة.

وقد تميّزتْ مؤلفاتهم في الحديث بأنها مؤلفاتُ رواية، تَعتمد على السند، وأنّ الأصل فيها أنّ المؤلِّف يَذْكر فيها الأحاديث بالسند المتصل منه إلى رسول الله صلى الله علية وسلم، وأن المؤلِّف نفسه راوٍ من رواة كل حديث يَذكره في كتابه عن رسول الله، فليس هو غريبا عن الرواية، بل هو أحد الرواة في سلسلة السند!.

ولقد يندهش كلُّ ذي عقلٍ يطّلع على كتبهم، ومكتباتهم، وجهودهم فيها، وكذلك علــى قيمتــها عندهم.

الفرع الثاني: نُبْذة عن أنواع مؤلفاتهم وعددِها:

ما أنواع مؤلفاتهم؟

إنّ أنواع مؤلفاتهم في الحديث متعددة، قد لا يأتي عليها الحصر الدقيق، وقد سمّوا كلّ نوعٍ باســم أو أسماء تدلُّ عليه.

وأذْكر سردا سريعا لأسماء مؤلفاتهم وعناوينها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمِن تلك الأسماء التي أطلقوها على مؤلفاتهم ما يلي:

- الصحيفة.	- الجزء.	- الكتاب.
- السنن.	- السنة.	- الجامع.
- الصحيح.	- المصنَّف.	- المستخرج.
- المستدرَك.	- المسنَد.	- الفوائد الحديثية.

- الأفراد.
- الناسخ والمنسوخ من القرآن، أو الحديث؛ وهو ما جاء من الروايات في ذلك بأسانيدها.

- التفسير المأثور؛ وهو ما جاء من الروايات المرفوعة، والموقوفة، والمقطوعة في التفسير.
- المراسيل. - العلل - الأحاديث القدسية.
- الشمائل النبوية، والمغازي، والسير المروية بالأسانيد.
- كُتب المصاحف، والقراءات المذكورة فيها الروايات بأسانيدها.
- عِلْم مختلف الحديث، وما يسوقه المؤلفون فيه من روايات.
- الخصائص المحمدية التي ذُكِرتْ فيها الروايات بأسانيدها.
- الأحاديث المتواترة.
- الأحاديث المشهورة على الألسنة.
- كُتب التخريج بمختلف أنواعها. - الموضوعات. - الأمالي.
- العوالي. - كُتب الزوائد. - كُتب الجمع لأحاديث عدد من الكتب.
- كُتب التاريخ التي تسوق الروايات بأسانيدها.

إلى غير ذلك من عناوين مؤلفاتهم في الحديث ومجالاتها.

وتحت كلِّ نوعٍ من هذه الأنواع عددٌ يُمْكن حصره، أو لا يُمكن حصره، من المؤلفات.

ولك أن تتصور هذا العدد الهائل، وكم في كل نوعٍ من أنواع مؤلفاتهم من المجلدات والأوراق! وكم أنفقوا فيها من الجهود، والهمم، والبحث،والدرس، والأوقات، والأعمار!.

وقد بلغت الكثرة بكتب الإسلام أن ألف فيها المؤلفون الكتبَ المتخصصة بذكر أسمائها، ومؤلفيها، وأسانيد رواياتها عن مؤلفيها، ومِن أهم كتب الإسلام، وأكثرها كثرةً المؤلفات في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلومه ومصطلحه.

ومِن هذا النوع من المصنفات التي تخصصت في بيان كتب الإسلام ما يلي:

- فهرست ابن خير الإشبيلي ٥٠٢-٥٧٥هـ.وهو ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم، وأنواع المعارف. وجلُّها من كتب الرواية والحديث. وقد جاء الكتاب في نحو ٤٦٠صفحة!!
- أبجد العلوم، لصديق بن حسن القنوجي، ت ١٣٠٧هـ ١٨٨٩م، في ثلاثة مجلدات.وقد ذكر جملة وافرة من المؤلفات، وكثير منها في الحديث.

- "الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرَّفة "، لمحمد بن جعفر الكتاني-١٣٤٥هـ. في نحو ٢٢٢ صفحة.

وقد ذكر ما وقف عليه من مشهور هذه الكتب، فعدّ نحو ١٧٢٥كتابا،(ألف، وسبع مئة، وخمسة، وعشرين). مع أنه لم يستقص، وبعض هذه الكتب أجزاء حديثية، وبعضها عشرات المجلدات، في آلاف الأوراق.

-كتب الفهارس، والمَشْيَخات، والمعاجم، والأثبات، والإجازات، ويَصْعب حصْرها.

وقد اشتملت هذه على كثير من أسماء الكتب، والشيوخ.

وقد اعتنى المحدِّثون بتدوين هذا النوع من الكتب الذي ضمّنوه أسماء شيوخهم ومروياهم؛ فكتبَ كثير من المحدثين لنفسه ثبتا أو معجما أو معاجم، أو مشيخة، أو مشيخات، أو فهارس، دوّن فيها أسماء شيوخه، وأسماء الكتب التي أخذها عنهم، ومروياته عنهم.

وذَكَر صاحب "فهرس الفهارس" - وهو الشيخ عبد الحي الكتاني- جملةً وافرة من هذا النوع من الكتب، و لم يستقص، و لم يُرِد الاستقصاء.

وينبغي أن يكون معلوما أن هذه الإحصاءات، وهذا العدد المذكور من الكتب أقل مما كتبه علماء الإسلام، ولاسيما المحدِّثون منهم ؛ فإنك لو جمعت مؤلفات خمسين شخصا فقط ممن كتبوا أربعين كتابا ؛ لكانت ألفي كتاب! فكيف بالباقي!.

بل ينبغي أن تتذكر أن عددا من العلماء ذُكر له من المؤلفات خمس مئة كتاب، بين صغير، وكبير، ومنهم من ذُكر له ثلاث مئة، ومنهم من ذُكر له مئة كتاب إلى غير ذلك من الأعداد.

وإنه لمن الصعب الحصر الدقيق للموجود من مصنّفاهم في مجال الحديث، أو في سواه؛ فكيف لو أدخلنا في التقدير المفقودَ من مؤلفاهم، علماً بأن المفقود من مؤلفاهم على قسمين:

قِسْمٌ مذكور في الفهارس السابق ذكرها، وقِسْمٌ غير مذكورٍ فيها، ولا نعرفُ عنه شيئا ،ومعلومٌ ما قيل عن اصطباغ نهر الفرات من حِبْر مؤلفات المسلمين التي أغرقها التتار في حرهم مع المسلمين!.

الفرع الثالث: نبذة تقريبية عن عدد أوراق مؤلفاهم:

لاشك في أننا لن نقدر قدر ما كتبه أسلافنا الصالحون المحدِّثون من أوراق، وما بذلوه فيها من أقلام، وحبر، وجهد، ورحلات، وأوقات، وما أرخصوه من مهج، وأرواح؛ فإنه لا يَقْدر قَدْر ذلك كله إلا

الله سبحانه، وكلٌّ ذلك عند ربي في كتابٍ، لا يَضِلُّ ربّي ولا ينسى!.

ولقد رغبْتُ في تصوُّرِ ما كتبه أولئك الأئمة الأطهار من أوراق عن الحديث، وعلومه، فلم أَجِدْ لهذا مجالا ولا حيلة، فعمدت إلى استخلاص تصورٍ جزئي تقريبيٍ، فانتهيتُ إلى فكرةِ إحصاءِ عددِ صفحات بعض مؤلفات الحديث؛ لأرى كيف تكون النتيجة.

فكان الأمر كالآتي:

عددت صفحاتِ: الكتب الستة المطبوعة، ومسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم، والسنن الكبرى للبيهقي، والمصنف لعبد الرزاق، وموطأ الإمام مالك بروايةٍ من رواياته، والموجود من المعجم الكبير للطبراني، والفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد، وجامع الأصول، فبلغت قرابة ٥٥٦٠٠(خمسة وخمسين ألفاً، وست مئة صفحة)، هذا عدا فهارس كثيرٍ منها.

وعددت صفحات: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"، لابن حجر، و"عمدة القاري شرح صحيح البخاري" للعيني، وشرح الكرمانيّ لصحيح البخاري، "وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"، للقسطلاني – وبهامشه شرح النووي على صحيح الإمام مسلم – وتغليق التعليق، لابن حجر، وشرح النووي على صحيح مسلم، وبذْل المجهود في حل سنن أبي داود، وتحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، وتحفة الأشراف بمعرفة الأطراف؛ فبلغ مجموع صفحاتها قرابة ٥٠٠٠٠ صفحة (خمسين ألف صفحة).

وتكمل هذه مع ما عددته من صفحات ما سبق من كتب المتون ١٠٥١٦٠مئة ألف صفحة وخمسة آلاف ومئتي صفحة تقريبا، هذا عدا فهارس كثيرٍ منها لم أُدخلها في العدد.هذا مع أن هذا الإحصاء إنما هو لبعض كتب متون الحديث وبعض كتب شروحها؛ وما بقي كثير وكثير جدا، لا أزعم بأنني أتمكن من حصره!.وكيف لو أدخلنا في هذا الإحصاء كتب الرجال، والتاريخ، والجرح، والتعديل بمختلف أنواعها؟! على أن من الصعب حصرها؛ لكثرتها.وكيف لو أدخلنا في هذا الإحصاء كتب علوم الحديث ومصطلحه، وسائر أنواع علوم الحديث!.

وقد أخذتُ عَيِّنةً من المؤلفات في التراجم، وهي كتابان فقط من كتب التراجم، والجرح، والتعديل، هما:

١- ((سير أعلام النبلاء))، للإمام الحافظ الذهبيّ، وهو في ٢٥ مجلّدا بفهارسه، فبلغتْ صفحاته مع الفهارس١٥٣٢١ صفحة.

٢- ((تهذيب الكمال)) للحافظ المزّيّ، الطبعة المحققة في ٣٥ مجلداً، بلغت مجموع صفحاته: ٢٢٣٩٣ صفحة!!.

ومجموع صفحات الكتابين: ٣٧٧١٤ صفحة!!.

كتابان فقط مجموع صفحاتهما قد شارفَ الأربعين ألف صفحة، فكيف بالكتب الأخرى!!. على أن هذه المؤلفات بعد طباعتها قد أضيفت إليها حواشٍ كثيرة طوّلتها، ليست هي من عمل المؤلف.

إنّ عجَبَنا لا ينقضي لو جاءنا خَبَرٌ عن شخصٍ نَسَخ بيده -مجرّد نَسْخٍ- كتابا واحدا في حجم أحَدِ هذين الكتابين؛ فكيف الحال، إذَنْ، بالنظر إلى اضطلاع شخصٍ واحدٍ بتأليف مثل هذا الكتاب ونَسْخه معا!!.

وكيف الحال، إذَنْ، بالنظر إلى أنّ ذلك المؤلِّف الإمام قد كَتب مؤلفات كثيرة ، وهذا واحدٌ منها، وفي مؤلفاته الأُخرى عِدّةُ مؤلفات قد لا تَقِلُّ عن هذا الكتاب؟! هل سنتّجه إلى الإنكار، وتكذيب مثل هذه الأخبار؟! وماذا نصنع إذا كانت هذه المؤلفات موجودة مُشاهدةً تُكذّبُ المُكَذِّبَ!.

هل سنتّجه إلى أن ذلك خارقٌ للعادة!وما سِرُّ تَكَرُّرِ الظاهرة، فالمؤلفون مِن هذا الصِّنف كثيرون!.

أمْ سنتّجه إلى أنّ ذلك إعجازٌ مِن إعجازات هذا الدين، فَخَصّه الله تعالى بجهود المُحدّثين، وخَصّهم به!!.

لقد حيّرتمونا أيها الأسلاف الصالحون مِن أئمة المحدّثين!لقد حيَّرتم أحفادكم في هذا الزمان الذي ماتت فيه الهمم، وقَعدتْ بأصحابها عن كل ما سِوى الأكل، والشرب، والنوم، ومتاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة!.

ولكن -بحمد الله- قد حَفظ الله تلك الجهود المباركة تاريخا، وواقعا يَعْبُرُ القرون الماضية، من عهود السلف الصالح إلى عصرنا الحاضر، وإلى ما شاء الله تعالى، لتبقى تلك المؤلفات والجهود شهودا لله وللحق، وللدِّين تَنْطق بالحقيقة، لا بالخيال، سواء صَدَّق المُصَدِّقون أمْ كَذّب المُكذّبون، ولتبقى منارات للعلم النافع، ومعالِمَ للهدى، والنور، وتَعْرِضَ نفسها -بل يَعْرِضها الله تعالى- لمن رَغِب في العلم والهدى والنور!.فما أنتم صانعون أيها الأحفاد؟!.

الفرع الرابع: أمثلةٌ لمؤلفات بعض الأئمة:

أذكُر فيما يلي عددا مِن الأمثلة لمؤلفاتِ عددٍ مِن الأئمة؛ لعلّها تكون مُذَكِّراً بالحقيقة ومُقَرِّباً لها.

مؤلفات الإمام العلامة أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي -٥١٣هـ-:

قال عنه الذهبي: "الإمام العلامة البحر، علق كتاب الفنون وهو أَزْيَدُ من أربع مئة مجلد، حشد فيه كل

ما كان يجري له مع الفضلاء والتلامذة. وما يسنح له من الدقائق والغوامض، وما يسمعه من العجائب والحوادث"[٣٦].

قلتُ: ما كان عليه أبو الوفاء مِن سعة العلم، والحرص عليه، وبذْل هذا الجهد العظيم مثالٌ لجهود الأئمة في التأليف، وتقييد العلم، هذا مع أنّ الرجل مذكورٌ بالفقه، لا بالحديث، لكن، كان في ضِمْن ما أوْدعه في كتابه هذا ما يتعلق بالحديث، وإنما أردتُ التمثيل به لِما أَسرني مِن هذه السيرة.

مؤلفات الإمام ابن عساكر -٥٧١هـ:

الإمام الحافظ محدّث الشام أبو القاسم الدمشقيّ، له من المؤلفات:

١- " تاريخ دمشق " في ثمان مئة جزء، قال الإمام الذهبي: ((قلت: الجزء عشرون ورقة، فيكون ستة عشر ألف ورقة))[٣٧].

يا لله! هذا كتاب واحد في موضوع واحد!!فرحِمَ الله يَدَيْنِ اشتغلتا بكتابة تلك الصحائف، وعَيْنَيْنِ أضاءتا لهما؛ فكتَبَتَا. كلُّ ذلك من أجْل هذا الدين، ومن أجْل حديث رسول رب العالمين!وما بالك بمؤلفاته الأخرى؟!. يكفينا هذا منه!!.

مؤلّفات الإمام عبد الغني المقدسي -٦٠٠هـ:

وهذا الإمام الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد أبو محمد المقدسي (٥٤١-٦٠٠هـ).

قال الإمام الذهبي عنه:

((وكَتَبَ ما لا يوصف كثرة، ومازال ينسخ، ويصنف، ويحدّث، ويعبد الله حتى أتاه اليقين))[٣٨].

وقال عنه الحافظ الضياء: ((ضعف بصره من كثرة الكتابة والبكاء))[٣٩]!

وقد وقفت على مجموع مصنفات الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى، كما ذكرها الذهبي[٤٠]، فوجدتها منهلةً كثرةً في العدد، وفي مجموع صفحاتها، ولكنني أتركُ ذلك اختصارا .

---

(٣٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٩/٤٤٣.

(٣٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤٥٥.

(٣٨) تذكرة الحفاظ: ٣/١٣٧٣.

(٣٩) تذكرة الحفاظ: ٣/١٣٧٤.

(٤٠) تذكرة الحفاظ: ٣/١٣٧٤.

مؤلفات الإمام ابن جرير الطبري –٣١٠هـ[٤١]:

١- كتاب التفسير.

٢- كتاب التاريخ.

٣- تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين.

٤- لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام.

٥- القراءات والتنــزيل والعدد.

٦- اختلاف علماء الأمصار.

٧- الخفيف في أحكام شرائع الإسلام.

٨- التبصير.

٩- تهذيب الآثار.

١٠- البسيط.

١١- المحاضر والسجلات.

١٢- ترتيب العلماء.

١٣- المناسك.

١٤- شرح السنة.

١٥- المسند.

١٦- الفضائل.

مؤلفات الإمام الذهبي-٧٤٨هـ[٤٢]:

١- التاريخ الكبير.

٢- التاريخ الأوسط.

٣- تاريخ الإسلام.

٤- سير أعلام النبلاء.

٥- تذهيب تهذيب الكمال.

٦- الكاشف.

٧- ميزان الاعتدال.

٨- المغني في الضعفاء.

٩- مختصر سنن البيهقي.

١٠- طبقات الحفاظ.

١١- مختصر الأطراف للمزي.

١٢- طبقات القراء الكبار.

١٣- الإعلام.

١٤- التجريد في أسماء الصحابة.

١٥- مختصر مستدرك الحاكم.

١٦- المجرد في أسماء رجال ابن ماجة.

---

(٤١) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبيّ، ٢٨٢/١٤ وما بعدها.

(٤٢) طبقات السبكي، ٢١٦/٥، والوافي بالوفيات، ١٦٣/٢.

١٧- مختصر تاريخ نيسابور للحاكم.

ومن كثرت مؤلفاتهم من أئمة الحديث كثرةً بالغة غير هؤلاء:

١- يحيى بن معين. ٢- ابن شاهين.

٣- النووي. ٤- السيوطي.

الفرع الخامس: مِن أقوالهم في مؤلفاتهم:

- قال الإمام الترمذيُّ عن كتابه (الجامع) وهو كتاب السنن: ((صنّفتُ هذا الكتاب، وعَرضتُه على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان؛ فرضوا به، ومَن كان هذا الكتاب في بيته فكأنما في بيته نبيٌّ يتكلم))[٤٣]!!. وعلّق الإمام الذهبيّ على هذا بقوله: ((قلتُ: في "الجامع" علمٌ نافعٌ، وفوائد غزيرةٌ، ورؤوس المسائل، وهو أحدُ أصول الإسلام، لولا ما كدّره بأحاديثَ واهية، بعضها موضوع، وكثيرٌ منها في الفضائل))[٤٤].وقال أيضا: ((قلتُ: "جامعُهُ" قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه، ولكن يَترخّصُ في قبول الأحاديث، ولا يُشدِّد، ونَفَسُهُ في التضعيف رَخْوٌ))[٤٥].

- قال الحافظ الذهبيّ: ((وكان الطبرانيُّ – فيما بَلَغَنا – يقول عن "الأوسط": هذا الكتاب رُوحي))[٤٦]!!.

ومعجم الطبرانيّ الأوسط هذا صنّفه على أسماء مشايخه المكثرين، وذكَر فيه غرائب ما عنده عن كلِ واحد منهم مِن الروايات[٤٧].

- قال الحافظ زكريا الساجيّ: ((كتاب الله أصلُ الإسلام، وكتاب أبي داود عَهْدُ الإسلام))[٤٨]!!.

- ((قال يحيى بن معين: أخرج غُنْدَرُ إلينا ذات يوم جرابا، فيه كتب، فقال: اجهَدُوا أن تُخرجوا فيها

(٤٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٩.

(٤٤) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٩.

(٤٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٩.

(٤٦) سير أعلام النبلاء، للذهبيّ (تهذيبه): ١١٥٥.

(٤٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١١٥٥.

(٤٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢/٩٥٩.

خطأ، قال: فما وجدنا فيه شيئا، وكان يصوم يوما، ويفطر يوما منذ خمسين سَنَة))[٤٩].

- وكان سعيد بن محمد بن صبيح بن الحداد المغربي يقول: ((دليلُ الضبط الإقلال، ودليل التقصير الإكثار، وكان من رؤوس السنَّة))[٥٠].

- نقل الإمام الذهبي في شأن أبي الفرج ابن الجوزيّ عن الموفق عبداللطيف أنه قال: ((وكانَ كثيرَ الغَلَطِ فيما يُصنِّفُه، فإنَّه كان يفرغُ من الكتابِ ولا يعتبره.

قلتُ: هكذا هو، له أوهامٌ، وألوان مِن ترْكِ المراجعةِ، وأخْذ العلم مِن صحفٍ، وصنَّفَ شيئاً لو عاش عمرا ثانيا، لَمَا لَحِقَ أنْ يُحَرِّرَهُ ويُتْقِنَهُ))[٥١].

- ((قال ابن أبي ذُهل: سمعتُ أبا العباس الدَّغولي يقول: أربع مجلدات لا تُفارقُني في السَّفر، والحَضَر، وإذا خرجتُ من البلد: كتاب المزني، وكتاب "العَين"، و"تاريخ البُخاري"، وكتاب "كليلة ودمنة"))[٥٢].

الفرع السادس: أهمية قراءة مؤلفاتهم هذه:

أما علمتَ أن بعض هذه المؤلفات قد مكثَ المؤلف في تأليفه سنين عددا؟! فمنهم من أمضى في تأليف كتابٍ من كتبه عشرين سنة، ومنهم من أمضى أكثر من ذلك[٥٣]، ثم أنت تَجِدُهُ بينَ يديك مُرَاجَعا مدقَّقا سائغا للقراءة والإفادة، ثم لعلك لا تُعيره منك نظرةً، ولا تخصه من عمرك بلحظة، كأنه لا يعنيك، وكأن مؤلفه استثناك من جملة مَن كتب لهم كتابه، فأي خسارة هذه!.أَمَا تَعْلم أنك لو قرأت الكتاب الذي استغرق مؤلفه في تأليفه سنتين أو سنة كاملة؛ فإنك بقراءتك له تختصر السنتين أو السنة وما بذله المؤلف فيها من جهدٍ في زمنِ قراءةِ الكتاب!

(٤٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢/٦٩٠.

(٥٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢/١٠٣٢.

(٥١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٣/١٥٠٦.

(٥٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢/١٠٦٠.

(٥٣) مثل: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ومقدمته: "هدي الساري مقدمة فتح الباري"، حيث استغرق في تأليف ذلك ما لا يقل عن ٢٥ عاما، انظر: فتح الباري ١٣/٥٤٦، ومثل: الحافظ المزي، الذي استغرق في تأليف "تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ستة وعشرين عاما.

فكيف لو قرأتَ ما ألّفه مؤلفه في عشرين، أو أربعين سنة؟! أليست هذه زيادةً في عمـــرك، وإضـــافة تضيفها إليه؟!فإلى متى ينام الزاهدون في العلم والهداية؟!

على أنه ما كل قارئ ينتفع بما قرأ، وما كل مَن وقف على ألفاظ أولئك الأئمة، وآثـــارهم، وأخبـــار أنفاسهم الطاهرة أفاد منها، وانتفع، ولكن مَن طَهُرَتْ أنفاسه، وأسلم للحق نفسَه.

ومَن لم يجاهِد نفسه في اتّباع الحق يَخْسَرْها في طريقِ الباطل!!.

المبحث الثالث مظاهر عنايتهم بالسنة :

المطلب الأول: إجمالٌ لمظاهر عنايتهم بالسنّة:

تَعدّدتْ مظاهر عناية المحدِّثين بسنّة النبيّ صلى الله علية وسلم، الأمر الذي يتناسقُ مع جهودهم المضنيةِ المضيئة، والفريدة-في الوقت نفسه-في هذا المجال، سواءٌ أكان ذلك كذلك في تاريخ الرجـــال، أم في تاريخ العناية بالعِلم والدِّين ونقْلِهما، لقد كانت جهودا فريدة قولا، وعملا، عِلما ومنهجا!

ويُمكن إجمالُ مظاهر عنايتهم بالسنّة في العناوين التالية:

- حفظهم للحديث.
- التربية على الحديث، وتعظيمه.
- حبُّ الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه.
- تفرُّغ بعضِهم للحديث.
- حِرْصهم على سَماعهم الحديث.
- حِرْصهم على إسماعهم الحديث.
- رحلاتهم في طلب الحديث.
- تأليفهم مختلف المؤلفات في الحديث.
- حبُّهمُ المحدِّثين مِن أجْلِ اشتغالهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- نقدهم للروايات والرواة.
- حرصهم على العمل بالحديث.
- تسلسل الأبناء مع الآباء في أداء هذه المهمة.
- أقوالهم المأثورة في هذا الشأن، وما تدلّ عليه مِن سمو وعناية بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- قصصهم الرائعة في هذا الباب، ودلالاتها المتعددة.
- اختلاط بعضهم لاحتراق كتبه، وذلك الاختلاط لأسباب: منها شدةُ وَجْد بعضهم على كتبه.
- رجوع بعضهم عن خطئه عند تنبيهه له مهما كانت النتيجة، ومهما كانت مكانة مَن نَبّهَهُ.
- إنفاقهم فيه كل غالٍ.

المطلب الثاني : رحلاتهم، وتَضْحياتهم في طلب الحديث:

إنّ الحديث عن رحلاتهم لا يُمكنُ أن يأتيَ على تصوير الحقيقة كما هي، كما أنّ ما نبذُلهُ فيه من الوقت، والجهد لا يُمكن أن يتناسب مع واقعِ حال رحلات المحدثين، تلك الرحلات المضنية الممتعة؛ ولكن حسبنا أن نقف على طَرَفٍ من الحقيقة في الأسطر التالية، من خلال أقلامهم، والنقل عنهم رحمهم الله تعالى.

فمن ذلك: قول سعيد بن المسيب: "إنْ كنتُ لأسَيرُ الليالي والأيام، في طلب الحديث الواحد"[٥٤].

وقال ابن عبدالبر:"رحل مسروق في حرفٍ، ورحل أبو سعيد في حرفٍ"[٥٥].ومن ذلك: قصة شعبة بن الحجاج في طلب حديثٍ واحد:

حدّث نصر بن حماد الوراق بحديثٍ على باب شعبة، فسمعه شعبة، فخرج، ولطمه، ثم رجع، وبكى نصر، وبيّن له شعبة أن هذا الإسناد خطأ؛ ثم ذكر له قصة رحلته من أجله إلى مكة؛ ليلتقي بعبد الله بن عطاء، أحد رواة الحديث، فسأله عنه، ثم إلى المدينة ليسأل سعد بن إبراهيم، ثم إلى البصرة؛ ليسأل زياد بن مخراق، ولما تأكد من عدم صحة السند قال دَمِّرْ على هذا الحديث، لو صحَّ لي مثل هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحبَّ إليَّ مِن أهلي، ومالي، والناس أجمعين.

فلله درُّك يا شعبة!!.وأين هذا مِن الذين يرحلون اليوم؛ ليفعلوا ويفعلوا... مما يسوؤهم في الدنيا وفي الآخرة، ويُسيء إلى غيرهم؟!.

وشتّان بين رَحَلاتِ المحدِّثين وبين رحلاتِ المُحْدَثين والمُحْدِثين!!.أقول هذا على الرغم مِن عدم التأكد مِن صحة القصة، لاسيما بالنظر إلى حال نصر بن حماد الورّاق[٥٦]؛ لأن أصل المعنى قد ثبت في مواضع

---

(٥٤) جامع بيان العلم وفضله، ١/٣٩٥.

(٥٥) جامع بيان العلم وفضله، ١/٣٩٦.

(٥٦) فقد تكلموا فيه، رماه عدد مِن الأئمة بالكذب، يُنظر، تهذيب التهذيب، ٤/ ٢١٧.

أُخرى، غير هذه القصة، كما هو معلوم.

ومِن ذلك ما ذكره أبو حاتم عن رحلاته، وسَيْرِه في طلب الحديث:
فقد قال ابن أبي حاتم: ((سمعت أبي يقول: أولُ سنة خرجتُ في طلب الحديث أقمت سبع سنين، أحصيتُ ما مشيتُ على قدمي زيادة على ألف فرسخ))[٥٧]. قال الذهبيّ: ((قلتُ: مسافةُ ذلك نحو أربعة أشهر، سَيْرَ الجادّة))[٥٨].
قال أبو حاتم: ((ولم أَزَلْ أُحصي، حتى لَمّا زاد على ألف فرسخٍ تركتُهُ، ما كنت سرتُ أنا مِن الكوفة إلى بغداد فما لا أُحصي كم مرةً، ومِن مكة إلى المدينة مراتٍ كثيرة، وخرجتُ مِن البحرين مِن قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيا ومِن مصر إلى الرملة ماشيا، ومِن الرملة إلى بيت المقدس، ومِن الرملة إلى عسقلان، ومِن الرملة إلى طبرية، ومِن طبرية إلى دمشق، ومِن دمشق إلى حمص، ومِن حمص إلى أنطاكية، ومِن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعتُ مِن طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليّ شيء مِن حديث أبي اليمان، فسمعتُ، ثم خرجت مِن حمص إلى بيسان، ومِن بيسان إلى الرقة، ومِن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجتُ قبل خروجي إلى الشام مِن واسط إلى النيل، ومِن النيل إلى الكوفة. كلُّ ذلك ماشيا، كلُّ هذا في سفري الأول، وأنا ابن عشرين سنةً، أجول سبع سنين...))![٥٩].
وانظر إلى هذه المسافات، وإلى هذه الهمة، وإلى قوله: "وأنا ابن عشرين سنة"! وانظر ما يصنع غالب أبناء العشرين سنة مِنّا اليوم، وغالبُ أبناء الثلاثين والأربعين...إلخ!!.

ومِن رحلاتهم رحلة أبي حاتم العجيبة :

قال ابن أبي حاتم: ((وسمعتُ أبي يقول: لما خرجنا من المدينة، من عند داود الجعفريّ، صِرنا إلى الجار[٦٠]، وركبنا البحر، وكنا ثلاثة أنفس: أبو زهير المرْوَرُّوذيّ شيخ، وآخر نيسابوري، فركبنا البحر، وكانت الريح

(٥٧) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٥٩.
(٥٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٣.
(٥٩) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٥٩-٣٦٠.
(٦٠) الجار موضع قرب المدينة، كما أنه موضعٌ بساحل عمان، كما في لسان العرب، وقال: "الجار هو بتخفيف الراء: مدينة على ساحل البحر، بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم وليلة". لسان العرب، ٤/١٥٦، مادة (جور).

في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا مِن الزاد، وبَقيَتْ بقيّة، وخرجنا إلى البر، فجعلنا نمشي أياما على البر، حتى فني ما كان معنا من الزاد، والماء، فمشينا يوما، وليلة لم يأكل أحدٌ منّا شيئاً، ولا شربنا، واليوم الثاني كمثلٍ، واليوم الثالث، كل يومٍ نمشي على الليل، فإذا جاء المساء صلينا، وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا مِن الجوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث، جعلْنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيا عليه، فجئنا نحرّكه وهو لا يَعْقل، فتركناه، ومشينا أنا وصاحبي قدر فرسخ أو فرسخين، فضعفتُ، وسقطتُ مغشياً عليّ، ومضى صاحبي وتركني، فلم يزل هو يمشي، إذ بصر من بعيدٍ قوما، قد قرّبوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى ﷺ، فلما عاينهم، لوّح بثوبه إليهم، فجاءوه معهم الماء في إداوة[٦١] فسَقَوْهُ وأخذوا بيده، فقال لهم: الحقوا رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشيا عليهم، فما شعرتُ إلا برجل يصبُّ الماء على وجهي، ففتحتُ عينيّ، فقلت: اسقني؛ فصبّ من الماء في ركوةٍ أو مشربة شيئا يسيرا، فشربت، ورجعَتْ إليّ نفسي، ولم يُروني ذلك القدر، فقلت: اسقني؛ فسقاني شيئاً يسيراً، وأخذ بيدي، فقلتُ: ورائي شيخ ملقى، قال قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخذ بيدي، وأنا أمشي أجرّ رِجليّ، ويسقيني شيئا بعد شيء، حتى إذا بلغتُ إلى عند سفينتهم، وأتوا برفيقي الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا أهل السفينة، فبقينا أياماً حتى رجعتْ إلينا أنفسنا، ثم كتبوا لنا كتاباً إلى مدينة يقال لها: راية[٦٢]، إلى واليهم...)) إلى آخر القصة[٦٣].

وقال ابن أبي حاتم: ((سمعت أبي يقول: بقيتُ بالبصرة في سنةِ أربع عشرة ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أُقيم سنة، فانقطعتْ نفقتي، فجعلْتُ أبيع ثياب بدني شيئاً بعد شيء حتى بقيتُ بلا نفقة، ومضيتُ أطوف مع صديق لي إلى المَشْيَخَة، وأسمع إلى المساء، فانصرف رفيقي، ورجعتُ إلى بيتِ خالٍ، فجعلْتُ أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحتُ مِن الغد، وغدا عليّ رفيقي، فجعلْتُ أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عني وانصرفتُ جائعا فلما كان من الغد غَدَا عليّ، فقال: مُرّ بنا إلى المشايخ، قلتُ: أنا ضعيف لا يمكنني. قال: ما ضعفك؟ قلت: لا أكتمك أمري، قد مضى يومانِ ما طعمتُ فيهما شيئا . فقال: قد بقي معي دينار، فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل النصف الآخر في الكراء. فخرجنا من البصرة، وقبضتُ منه

(٦١) "إناء صغير مِن جلد يُتّخذ للماء، كالسطيحة، ونحوها"، "النهاية في غريب الحديث، ٣٣/١، (أدا).

(٦٢) محلّة بفسطاط مصر، وهي المحلة التي في وسطها جامعُ عمرو بن العاص.

(٦٣) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٦٤-٣٦٥.

النصفَ دينار))!![٦٤].

مثالٌ عجيب لتضحياهم ، وانشغالهم بطلب الحديث:عن ((ابن أبي حاتم قال: كنا بمصر سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ، ونقابل. فأتينا يوما أنا ورفيق لي شيخا، فقالوا: هو عليل ؛ فرأيت سمكة فأعجبتنا، فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ، فمضينا، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام، وكاد أن يَنْضى[٦٥] فأكلناه نيّاً، لم نتفرغ نشويه؛ ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد))[٦٦]!!.

ومِن أمثلة تضحياهم في طلب الحديث:

- ما ذكره ابن طاهر بقوله: "كتبتُ الصحيحين، وسنن أبي داود سبع مرات بالأجرة، وسنن ابن ماجه عشر مرات، بالريّ"[٦٧].
- وقول ابن طاهر، أيضا: "بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، ومرة بمكة، وذلك أني كنت أمشي حافيا في حَرِّ الهواجر بهما، وما سألت في حال الطلب أحدا، وكنت أعيش على ما يأتي من غير مسألة، والله ينفعنا به، ويجعله خالصا لوجهه"[٦٨].

بل إنّ بعضهم قد انقطع عنه الماء في رحلته لطلب الحديث الشريف؛ فاضطُرَّ إلى أن يَشرَب بَوْلَهُ مِن أجْلِ ذلك![٦٩].ولا عجبَ أن تَصْدر مثل هذه التضحيات عن المحدِّثين الأخيار، وهم الذين يَعْلمون قَدْر ما يطلبون، وهم الذين يَعْلمون كيف يَحْصل لهم ما يَطلبون!.كيف لا،وهم الذين يروون ما أخرجه مسلم

---

(٦٤) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٦٣-٣٦٤.

(٦٥) أي: يَخْلَقُ، وفي لسان العرب: "ويقال: أَنْضَى وجهُ فلان ونَضا على كذا وكذا أي أَخْلَقَ". لسان العرب: ٣٣٢/١٥، مادة (نضا).

(٦٦) تذكرة الحفاظ، ٨٣٠/٣.

(٦٧) تذكرة الحفاظ، ١٢٤٣/٤.

(٦٨) تاريخ دمشق، ٢٨١/٥٣.

(٦٩) منهم: عبد الرحمن بن يوسف بن سعيد بن خراش- على حدِّ ما ذكر عن نفسه-، ينظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي، ٦٨٥/٢.

عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه، قال: ((لا يستطاع العلم براحة الجسم))![٧٠].

المطلب الثالث: عناوين تَرْوِي الحقيقة:

مما يُعرِّفُك بجهود أولئك الصالحين الأفاضل من محدِّثي هذه الأمة تجاه ميراث النبوة، أن تقِف على عناوين رائعة، تدل على صفاتهم، وأخلاقهم، ومنهجهم، وجهودهم. تلك العناوين التي يمكن أن يعبِّر بها أيُّ مطّلع عليها عن واقعهم، دون تكلّفٍ في تلك العناوين أو تزويق.

فمن العناوين التي تَرْوِي الحقيقة ما تقِف عليه في تاريخهم من نحو العناوين التالية:

- تحمُّلهم شَظَفَ الحياة، وشدّهَا في طلب الحديث.
- سعة حفظهم، وأخبارهم في ذلك.
- تفرُّغ بعضهم للحديث.
- جهودهم في التأليف، وأحوالهم العجيبة في هذا الباب.
- تسلسل الأبناء والآباء منهم في التعاقب على هذه المهمة الشريفة.
- دقتهم وتوثقهم.
- رجوع أحدهم عن الخطأ إذا تبين له بغضّ النظر عن سِنٍّ من نبهه أو حاله.
- نفقاتهم في هذا الشأن.
- رحلاتهم.
- دروسهم ومجالسهم واختباراتهم.
- صرامتهم في نقد الرواة والمرويات دون مجاملة لقريب أو بعيد.
- حرصهم على سماع الحديث وإسماعه، وعلى لقاء الشيوخ للأخذ عنهم، حتى إنهم قد يُعَزّون من يفوته السماع من شيخٍ لوفاته.
- كثرة عدد الحاضرين لبعض مجالس التحديث والإملاء.
- منهجهم ودقتهم فيه.
- تعبدهم لله تعالى بالحديث وعملهم به.

---

(٧٠) صحيح مسلم، برقم ١٧٥، المساجد ومواضع الصلاة، ٤٢٨/١.

- أخلاقهم وتعلقهم بالفضائل.

المبحث الرابع

منهج عنايتهم بالسّنّة

ينقسم هذا المبحث إلى ستة فروع، أذكرها على النحو التالي:

الفرع الأول: ذِكْرُ معالم منهج المحدّثين في العناية بالسنة فقها وتطبيقا :

تأملتُ منهج المحدِّثين في العناية بالسنة، فقها وتطبيقا، فتوصّلت إلى عددٍ من العناوين التي توضِّح معالم منهجهم، استخلصتُها مما وقفت عليه من جهودهم، وسيرهم، رحمهم الله تعالى.

ولعل من أهم معالم منهجهم في جهودهم نحو السنّة النبويّة ما يلي:

- فقههم لغايتهم التي يسعون من أجلها.
- تقديرهم واحترامهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- تقرُّر أصل الاتّباع عندهم، وعدم الابتداع.
- التزامهم بالأخلاق الحميدة والصفات الإيمانية العالية.
- تلقّيهم الحديث للعمل به كما هو، لا لنصرة مذهبٍ، أو رأي.
- توازنهم في القيام بهذا الواجب إلى جانب غيره من الواجبات.
- تفرُّغُ كثير منهم للقيام بهذا الواجب وانقطاعهم له.
- صرامتهم في النقد، وعدم المجاملة.
- فقههم للسنن، ولمسائل هذا العلم المنهجية فقها سديدا.
- عدم اعتقادهم العصمة لأحد سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- اعتدالهم في النقد.

وبالوقوف على أخبارهم، وسِيَرِهم، ومواقفهم، وأقوالهم، فيما يندرج تحت هذه العناوين يتضح منهج عنايتهم بالسنة، الذي حَكَمَ منهجهم، ويتأكد هذا المنهج بالوقوف ذلك.

الفرع الثاني: فقههم لغايتهم:

فيما يلي حديثٌ عن بعض هذه العناوين في فقرات:

يتبين فقههم لغايتهم التي يسعون لها من خلال جهودهم وعلومهم، وقد تنحصر هذه الغاية في الثلاثة الأهداف الرئيسة التالية:

- توثيق السنة النبوية.
- العمل، والتعبد لله تعالى بها.
- نشرها.

ونتج عن هذا عنايتُهم بالصحيح من الروايات، وتمييزها عن سواها، ومِن هنا أرشد الإمام عبد الله بن المبارك إلى ملاحظةٍ مهمة بقوله: ((في صحيح الحديث شغلٌ عن سقيمه))(٧١).قلت: ولكن من أجل الحفاظ على الصحيح لابد من بيان السقيم، ونقده، ولكن تَصْدق كلمة هذا الإمام هذه على مجال التعبد والعمل اللذين لا يغني فيهما إلا الصحيح، وتَصْدق أيضا على ترتيب الأولوية في الطلب والتحصيل، أما مسألة الاشتغال بهذا العلم بعامة فينبغي أن تَشْمل هذا، وهذا، والله الموفق.

الفرع الثالث: تقديرهم للحديث:

ومن معالم منهجهم تقديرهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم- وإجلالهم له، وشدّة رعايتهم لهذا الحب والتعظيم، بحيث يُرْخِصُ أحدهم نفسه ويُذِلُّها، ولا يُذِلّ الحديث، على ما تشهد به سيرهم وعباراتهم.ومن هنا فلا عَجَبَ مما رواه أحمد بن أبي الحَوَاريّ، قال: ((جاء رجل من بني هاشم إلى عبد الله بن المبارك؛ لِيَسمع منه، فأبي أن يُحدّثه، فقال الشريف لغلامه: قمْ، فإنّ أبا عبد الرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام؛ ليركب، جاء ابن المبارك؛ لِيُمسك بركابه، فقال: يا أبا عبد الرحمن، تفعل هذا ولا ترى أن تحدثني! فقال أُذِلُّ لك بَدَني، ولا أُذل لك الحديث))(٧٢)!!

الفرع الرابع: الْتزامهم بالأخلاق الحميدة والصفات الإيمانية العالية:

لقد كانت الأخلاق الحميدة، والصفات الإيمانية العالية هي السمة الغالبة لأغلب المحدثين، ولعل أهم خُلُقٍ يجمع هذه الأخلاق هو أنهم طلبوا الحديث للعمل به، وللتدين، وعبادة الله تعالى، وهذا هو أهم الأسباب أيضا لتخلُّقهم بالأخلاق الحميدة، وهم يمرون في الحديث ببيان الأخلاق الفاضلة والحث عليها، وببيان الأخلاق الرذيلة، والتحذير منها، وبصفاتِ المؤمنين، وصفاتِ الكافرين، والمنافقين.

---

(٧١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٥٧.

(٧٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٥٧.

ولهذا قال سفيان الثوري: ((ما بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قطُّ إلا عملتُ به ولو مرة))(٧٣).

قال وكيع: "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، ونستعين على طلبه بالصوم"(٧٤).

ومشهور عن أئمة الحديث: الصدق، والشجاعة، والكرم، والمروءة، والتقى، والورع، والعبادة، والمجاهَدَةُ، وسائر كريم الأخلاق.ولقد تجلّتْ أخلاقهم، وثمراتها في سلوكهم، وأعمالهم، سواء فيما يتعلق بسيرتهم في طلب الحديث، وتعليمه، أو فيما يتعلق بسيرتهم العامة.لقد تَجلّت هذه الأخلاق في مسالكهم في رواية الحديث، وتلقّيه، وفي جرحهم، وتعديلهم للرواة، وفي تعاملهم مع الناس. وتراجمُهُم في كُتب التراجم خير شاهدٍ على هذا، وقد لا نستطيع أن نأتيَ على الحصْر في هذا الباب، ولو سلكنا مسلك التفصيل.

واستمعْ أو اقرأ الأمثلة التالية، عن ثمرات كريم أخلاقهم التي تبيّن لك إلى أيّ مَدىً تَعلّقوا بالفضائل والدار الآخرة:

١- قال ((الحسين بن أحمد الصفّار: سمعت ابن أبي حاتم يقول: وَقَعَ عندنا الغلاء، فأنفذ بعض أصدقائي حبوبا من أصبهان، فأنفقتُها على الفقراء، وكتبتُ إليه: اشتريت لك بها قصرا في الجنة؟. فقال: رضيتُ إن ضمنتَ. فكتبتُ إليه على نفسي صكا بالضمان. فأُريت في المنام: قد قبلنا ضمانك، ولا تَعُد لمثل هذا))!! ثم علّق الإمام الذهبي على القصة بقوله: ((قلت: الحسين ضعيف))(٧٥). قلتُ: والمعنى يحتاج إلى الرجوع فيه إلى الشرع، والمنامات ليست مصدرا للتشريع. فإنْ صحت القصة فليست إلا اجتهادا منه، رحمه الله، حمَلَه عليه شدة رغبته في الخير، ولكن، الخير في الورع عن مثل هذا في مثل هذا المقام.

٢- ((قال ابن الجنيد، سمعت يحيى بن معين يقول: إنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من مائتي سنة!)).وعلّق على هذا في سير أعلام النبلاء بقوله: لعلها: ((من مئة سنة))؛ فإن

---

(٧٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٥٨٤.

(٧٤) جامع بيان العلم وفضله، ٧٠٩/١.

(٧٥) تذكرة الحفاظ: ٨٣١/٣.

ذلك لا يَبْلغ في أيام يحيى هذا القَدْر))[٧٦].

٣- قال ابن مهرويه: ((دخلت على ابن أبي حاتم، وهو يحدّث بكتابه "الجرح والتعديل"، فحدّثته بهذا؛ فبكى، وارتعدت يداه، وسقط الكتاب، وجعل يبكي، ويستعيدني الحكاية))[٧٧]! وعلّق الذهبي في "السير" على هذا بقوله: ((أصابه على طريق الوجل وخَوْفِ العاقبة، وإلا فكلام الناقد الورع في الضعفاء من النصح لدين الله، والذب عن السنة))[٧٨].

٤- من ثمرات أخلاقهم الفاضلة رواية الأكابر منهم عن الأصاغر:

فمن أخلاقهم أنهم روى الأكابر منهم عن الأصاغر، سواء في السن، أو الفضل، أو فيهما معا ، فروى الكبير عن الصغير، وروى الشيخ عن تلميذه، وروى الآباء عن الأبناء، حتىّ أنهم احتاجوا أن يَعْقِدوا بابا مستقلا في أنواع علوم الحديث عن هذا النوع من الرواية؛ لئلا يَظُن المطّلعُ على الرواية أنّ المروي عنه في هذه الحال أكبر من الراوي عنه، أو أفضل مطلقا...

فأين نحن اليوم من هذا الخلق الكريم؟!هل نكتفي بروايته ونغفل عن فقهه ودرايته؟!هل نكتفي بالمفاخرة به تاريخا وننساه واقعا؟! ما أعظمَ الغفلةَ، وما أشدَّ الخطرَ؛ فاللهم سَلّمْ سَلّمْ.

حقاً لقد وصَلْنا-في غالب أحوالنا-في هذا إلى مستوىً مُزْرٍ؛ إننا إذْ لم يرو منا الكبير عن الصغير، لم نكتف بهذا، بل نزلنا إلى مستوىً أبعدَ، حيث لم يَرْضَ كثير من صغارنا في أحوالٍ كثيرة بالتواضع والأخذ عن القرين، بل إلى عدم القناعة والرضا بالأخذ عن الكبير!.

أمّا السلف الصالح فكان فيهم الكبير يروي عن الصغير، ويروي الأب عن ابنه، والشيخ عن تلميذه، والقرين عن قرينه، وقالوا: لا ينبل الرجل حتى يكتب الحديث عن كل أحد. والله المستعان.

فهل يتجدد التاريخ، أم أنه سيظل تاريخا فقط؟!هل سنتفهم الدروس من تاريخنا أم ستكون مهمتنا هي قراءةُ التاريخ فقط على أنه قصص، وأحداث كانت في الماضي، أم أننا سنتعلم تاريخَنا على أنه دروسٌ في الفضائلِ، وتطبيقِ الإسلام، وأنه عِبَرٌ ومواعظ..؟!.

(٧٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٨.

(٧٧) تذكرة الحفاظ: ٣/ ٨٣١.

(٧٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٨.

الفرع الخامس: نقْدهم للمبالغات وردُّهم لها:

ساقَ الإمام الذهبيّ في ترجمة وكيع بن الجرّاح بالسند إلى يحيى بن أكثم أنه قال: ((صَحِبْتُ وكيعا في الحضر، والسفر، وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة))(٧٩). وعلّقَ الذهبي على هذا بقوله:

((قلت: هذه عبادةٌ، يُخْضَع لها. ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة؛ قد صح نهيه عليه السلام- عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يسر، ومتابعة السنة أولى، فرضي الله عن وكيع، وأين مثل وكيع؟!ومع هذا فكان ملازما لشرب نبيذ الكوفة، الذي يُسْكر الإكثارُ منه، متأوّلاً، في شربه، ولو تركه تورعا كان أولى به؛ فإن من توقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وقد صح النهي والتحريم للنبيذ المذكور. وليس هذا موضع هذه الأمور.وكلٌّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُتْرك، فلا قدوة في خطأ العالم. نَعَم ولا يُوَبَّخُ بما فعَله باجتهاد، نسأل الله له المسامحة))(٨٠).

وقال الذهبي في ترجمة ابن عطاء الزاهد العابد: ((وقيل: إن ابن عطاء فَقَد عقله-يَعني بسبب مجاهدته لنفسه بالجوع والخلوة- ثمانية عشر عاماً، ثم ثاب إلى عقله.ثَبَّت الله علينا عقولنا وإيماننا، فمن تسبب في زوال عقله بجوع أو رياضة صعبة، وخلوة، فقد عصى وأثم، وضاهى من أزال عقلَه بعض يومٍ بسُكرٍ. فما أحسنَ التقيدَ بمتابعة السُّنن والعلم!))(٨١).

- ((وقال أبو بكر بن داسَةَ: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن رسول الله صلى الله علية وسلم خمس مئة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب-يعني كتاب "السنن"، جمعتُ فيه أربعة آلاف حديث وثماني مئة حديث، ذكرت الصحيح، وما يشبهه، ويقاربه، ويَكْفي الإنسانَ لدينه من ذلك أربعة أحاديث، أحدها: قوله صلى الله علية وسلم (الأعمال بالنيات) والثاني (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه).والثالث قوله: (لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه). والرابع: (الحلال بيّن)...الحديث.

وعلق الذهبي على هذا قائلا: "قوله: يكفي الإنسان لدينه" ممنوع، بل يَحتاجُ المسلم إلى عدد كثير من

(٧٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٦٩٦-٦٩٧.

(٨٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٩٦-٦٩٧.

(٨١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٠٣٧.

السنن الصحيحة مع القرآن))[٨٢].((وروي عن الحافظ أبي عبد الرحمن النَّهاوَنْدي أنه سمع الفسوي يقول: كتبت عن ألف شيخ، وكَسْرٍ كلهم ثقات.

قلت: ليس في مشيخته إلا نحو من ثلاث مئة شيخٍ، فأين الباقي؟ ثم في المذكورين جماعة قد ضُعِّفوا))[٨٣]. أي ليسوا كما في هذا القول.

وقال الإمام الذهبي معلقا على عبارةٍ، أخطأ فيها ابن أبي داود: ((وقد أخطأ ابن أبي داود في عبارته وقوله، وله على خطئه أجر واحد، وليس من شرط الثقة أن لا يخطيء، ولا يَغلط، ولا يسهو. والرجل من كبار علماء الإسلام، ومِن أوثق الحفاظ - رحمه الله تعالى -))[٨٤].

- قال الحافظ الذهبيّ في ترجمة ابن عبد البر: ((قلتُ: كان إماما دَيِّنا ثقة، متقنا، علاّمة، متبحّرا، صاحِبَ سنّة واتّباع، وكان أوّلا أثريا ظاهريا - فيما قيل - ثم تحوّلَ مالكيا مع مَيلٍ بَيّنٍ إلى فقْه الشافعيّ في مسائل؛ فإنه ممن بَلَغَ رتْبة الأئمة المجتهدين، ومَن نَظر في مصنّفاته، بَان له منزلتُه من سعة العلم، وقوّة الفهم، وسَيَلانِ الذهن، وكلٌّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُتركُ إلا رسول الله صلى الله علية وسلم- ولكن إذا أخطأ إمام في اجتهاده، لا ينبغي لنا أن ننسى محاسنه، ونُغَطِّيَ معارفه بل نستغفر له، ونعتذر عنه))[٨٥].!!

- وقال الإمام الذهبي عن أبي محمد ابن حزم:

((قلتُ: قد أخَذَ المنطق-أبعده الله مِنْ عِلْم-عن محمد بن الحسن المَذْحجِي، وأمعَنَ فيه، فزلْزَلَهُ في أشياء. وَلِي أنا مَيلٌ إلى أبي محمد لمحبته في الحديث الصحيح، ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائلِ البَشِعَة في الأصول والفروع، وأَقطعُ بخطئه في غير ما مسألة، ولكن لا أُكَفِّرُه، ولا أُضلله، وأرجو له العفو والمسامحةَ، وللمسلمين، وأَخضعُ لفرْط ذكائه وسَعَةِ علومه))[٨٦]!!.

---

(٨٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٥٧.

(٨٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٥٦.

(٨٤) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٩٦٣.

(٨٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٢٦٩.

(٨٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:١٢٨٠.

- قال الإمام الذهبيّ:

((وإنما شأن المحَدِّث اليوم الاعتناء بالدواوين الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن البيهقي، وضبْط متونها وأسانيدها، ثم لا يَنْتَفع بذلك حتى يَتّقيَ ربَّه، ويَدين بالحديث؛ فعلى عِلمِ الحديث وعُلمائه لِيَبْكِ مَن كان باكيا؛ فقدْ عاد الإسلام المحضُ غريبا كما بدأ، فَلْيَسْعَ امرؤٌ في فكاكِ رَقَبته من النار، فلا حول ولا قوة إلا بالله))[٨٧]!.((ثم العِلْم ليس هو بكثرة الرواية، ولكنه نورٌ يَقْذفه الله في القلب، وشَرْطه الاتّباع، والفرار من الهوى والابتداع. وفقنا الله وإياكم لطاعته))[٨٨].

الفرع السادس: دِقّتهم في الفقه ومنهجِ الفهم وشفافيتهم فيه:

لِعَددٍ من أئمة الحديث لطائفُ في باب فقه الحديث، ومنهج فهمه، والاستنباط منه، أذْكرُ نماذج منها فيما يلي:

- قال الذهبيّ:

((.. قال اليَسَعُ بن حزمٍ الغافقيّ، وذكَرَ أبا محمد فقال: حدّثني عنه عمرُ ابن واجب قال: بينما نحن عند أبي بِبَلَنْسِيَةَ وهو يُدَرِّسُ المذهب إذا بأبي محمد ابن حزمٍ يَسمعُنا، ويَتعجبُ، ثم سأل الحاضرين مسألةً في الفقه، جُووب فيها، فاعتَرضَ في ذلك، فقال له بعض الحُضّار: هذا العلم ليس من مُنْتَحلاتك، فقام وقَعَد، ودَخل منزلَه فعَكف، وَوَكَف منه وابلٌ فما كَفَّ، وما كان بعد أشهرٍ قريبةٍ حتى قَصَدَنا إلى ذلك الموضع، فناظر أَحسن مناظرة، وقال فيها: أنا أَتّبع الحق، وأجتهد ولا أتقيّدُ بمذهب))[٨٩].وهُنا عَلّق الإمام الذهبي بقوله: ((قلتُ: نَعَم، مَن بَلغ رُتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عِدّةٌ من الأئمة، لَمْ يَسُغْ له أن يُقلِّدَ، كما أن الفقيه المُبتدئَ، والعاميَّ الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يَسوغُ له الاجتهاد أبدا، فكيف يَجتهِدُ؟! وما الذي يقول؟! وعلامَ يَبني؟! وكيف يَطيرُ ولَمّا يُرَيِّش؟!

- ثم قال الذهبيّ:

والقِسم الثالث: الفقيه المنتهي اليَقِظُ الفَهِمُ المحدِّث، الذي قد حفظ مختصرا في الفروع، وكتابا في قواعد

---

(٨٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٩٧٩- ٩٨٠

(٨٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٨٠.

(٨٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٢٧٦ ١٢٧٧.

الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل مع حفظِه لكتاب الله، وتشاغُله بتفسيره، وقُوّةِ مُناظرتــه، فهذه رُتبةُ من بلغ الاجتهاد المقيَّد، وتأهّلَ للنظر في دلائل الأئمة؛ فمتى وضَحَ له الحق في مسألة، وثَبَت فيها النص، وعَمِل بها أحدُ الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو كمالك، أو الثوري، أو الأوزاعيّ، أو الشافعيّ وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، فَلْيَتَّبِعْ فيها الحقَّ،ولا يَسْلُك الرُّخص، ولْيتورع، ولا يسعه فيها بعد قيام الحجةِ عليه تقليدٌ، فإن خاف ممن يَشْغب عليه من الفقهاء فلْيَتكتمَّ بها، ولا يتـــراءى بفعلـــها، فربما أعجبته نفسه، وأحبَّ الظهور، فيُعاقَب، ويَدخل عليه الداخلُ من نفسه. فكم من رجـــلٍ نَطـــق بالحقِّ، وأَمَر بالمعروف، فيُسَلِّطُ اللهُ عليه مـــن يؤذيه لســـوء قصْده، وحُبِّـــه للرئاسة الدينية.

فهذا داءٌ خفيٌّ سارٍ في نفوس الفقهاء، كما هو سارٍ في نفوس المنفقين من الأغنياء، وأربابِ الوقـــوفِ والتُّرَبِ المُزَخْرَفَةِ، وهو داءٌ خفيٌّ، يسْري في نفوس الجند، والأمراء، والمجاهدين؛ فتراهم يَلْتقون العدوّ، ويَصْطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مُخَبَّآتٌ وكمائنُ، من الاختيالِ، وإظهارِ الشـــجاعة؛ ليقـــال، والعُجْبِ، ولبْس القَراقِلِ[٩٠] المُذَهَّبَة، والخُوَذ المزخرفة، والعُدد الـــمُحَلاّة على نفوسٍ مُتكبرة، وفُرسانٍ متجبّرة، وينضاف إلى ذلك إخلالٌ بالصلاة، وظلْم للرعيّة، وشربٌ للمسكر، فأنى يُنصرون؟! وكيـــف لا يُخذَلون؟ اللهمّ فانصر دينَك، ووفّقْ عبادك. فمَنْ طَلَبَ العلم للعمل كَسَرَهُ العِلْم، وبكى على نفسه، ومن طَلَبَ العِلْم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامقَ واختالَ، وازدرى بالناس وأهلكه العُجْـــب، ومقتتْهُ الأنفس{قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها} (الشمس: ٩، ١٠) أي: دسسها بالفجور والمعصية. قُلِبتْ فيه السين ألفاً))[٩١]!!.

- ((عن قَزَعَةَ، قال: رأيت على ابن عمر ثياباً خَشنةً أو جَشبةً؛ فقلت له: إني قد أتيتك بثوبٍ لَيّنٍ مما يصنع بخراسان، وتقرُّ عيناي أن أراه عليك. قال: أَرِنيه، فلمسه، وقال: أحرير هذا؟ قلت: لا، إنـــه من قُطْن. قال: إني أخاف أن ألبسه، أَخافُ أن أكونَ مُختالا فخورا؛ والله لا يُحِبُّ كلَّ مُختـــالٍ فخور. قلت -القائل هو الذهبيّ-: كلُّ لباس أُوجدَ في المرء خيلاءَ وفخرا فترْكه مُتَعيِّن، ولو كـــان من غير ذهب ولا حرير. فإنا نرى الشابَّ يلبس الفَرَجية[٩٢] الصوف بفَرْوٍ من أثمان أربع مئة درهم

(٩٠) نوع من الثياب.

(٩١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٢٧٦-١٢٧٨.

(٩٢) ثوب واسع طويل الأكمام.

ونحوها، والكِبْرُ والخُيَلاءُ على مشيته ظاهر، فإن نَصَحْتَه، ولُمْتَه برفقٍ كابرَ، وقال: ما فيَّ خيلاء ،ولا فخرٌ. وهذا السيدُ ابنُ عمر يخافُ ذلك على نفسه. وكذلك ترى الفقيهَ المترف إذا لِيمَ في تفصيلِ فَرَجية تحت كعبيه، وقيل له: قد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم (ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار)[٩٣]، يقول: إنما قال هذا فيمن جرَّ إزاره خُيلاء، وأنا لا أفعلُ خُيَلاء. فتراه يُكابرُ، ويُبَرِّيءُ نفسه الحمقاء، ويعمدُ إلى نصٍّ مُستَقِلٍّ عامٍّ، فيخصُّهُ بحديثٍ آخر مُستَقِلٍّ بمعنى الخُيلاء، ويترخصُ بقول الصديق إنه يا رسول الله يسترخي إزاري، فقال: (لستَ يا أبا بكر ممن يفعله خُيَلاء)[٩٤] فقلنا: أبو بكر رضي الله عنه لم يكن يُشدُّ إزاره مَسْدُولاً على كعبيه أوّلا، بل كان يَشُدُّه فوق الكعب، ثم فيما بعد يسترخي. وقد قال عليه السلام: (إِزْرَةُ المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه، لا جُناح عليه فيما بين ذلك وبين الكعبين)[٩٥] ومثلُ هذا في النهي لمن فَصَّلَ سراويل مُغَطِّياً لِكعابِه. ومنه طولُ الأكمام زائداً، وتطويلُ العذَبة. وكلٌّ هذا من خُيلاء كامنٍ في النفوس. وقد يُعْذر الواحدُ منهم بالجهل، والعالِمُ لا عُذْر له في تركهِ الإنكارَ على الجَهَلَة. فإنْ خُلِعَ على رئيس خلعة سيَرَاء[٩٦] من ذهبٍ وحريرٍ، وقُنْدُس[٩٧] -يُحَرِّمُهُ ما وَرَدَ في النهي عن جلود السباع -ولبسها الشخصُ يسحبها، ويختال فيها، ويَخطُرُ بيده، ويغضب ممن لا يُهنّيه بهذه المحرمات، ولاسيما إن كانت خلعة وزارة، وظلمٍ ونظر مَكْس[٩٨] أو ولايةِ شرطةٍ. فلْيتهيّأْ للمقْت، وللعزلِ، والإهانةِ، والضرب، وفي الآخرة أشد عذابا وتنكيلا. فرضيَ الله عن ابن عمر ،وأبيه. وأين مثل ابن عمر في دينه، وورعه، وعلمه، وتألُّهِهِ وخوفهِ من رجلٍ تُعْرَضُ عليه الخلافة، فيأباها، والقضاءُ مِن مثل عثمان ،فيردُّه، ونيابةُ الشام

(٩٣) أخرجه البخاري برقم ٥٨٨٧، اللباس، (١٠/٢٥٦، فتح).

(٩٤) أخرجه البخاري برقم ٥٧٨٤، اللباس، (١٠/٢٥٤، فتح)، بلفظ: (..لست ممن يصنعه خيلاء).

(٩٥) أخرجه ابن حبان في "صحيحه"، ٥٤٢٣، اللباس ٧/٣٩٩، وابن ماجة في "سننه" ٣٥٧٣، اللباس، ٢/١١٨٣.

(٩٦) السِّيَرَاءَ: الحرير الصافي، ومعناه حُلَّةُ حرير. يُنظر: لسان العرب، ٤/٣٩١، مادة (سير).

(٩٧) حكى في لسان العرب عن ابن الأعرابي: "قَنْدَسَ الرجلَ إذا تاب بعد مَعصية، وقيل: قَنْدَسَ إذا تَعَمَّد معصية . أبو عمر: قَنْدَس فلان في الأرض قَنْدَسَة إذا ذهب على وجهه سارياً في الأرض". لسان العرب، ٦/١٨٤، مادة (قندس).

(٩٨) الجباية أو الضريبة.

لِعليٍّ فيهرب منه. فالله يَجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب))[٩٩].

- ((عن نافع أو غيره، أن رجلا قال لابن عمر: يا خير الناس ، وابن خير الناس. فقال: ما أنـا بخـير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبدٌ من عباد الله، أرجو الله، وأخافه، واللهِ لن تزالوا بالرجل حتى تُهلِكُوه))[١٠٠].

- ((أخبرنا أحمد بن سلامه في كتابه، عن عبد الرحيم بن محمد الكاغدي، وأخبرنا إسحاقُ بن خليل، أخبرنا الكاغدي، أخبرنا أبو علي الحداد، أخبرنا أبو نعيم، حدثنا إسحاق بن أحمد، حدثنا إبـراهيمُ بن يوسف، حدثنا أحمد بن أبي الحَواري قال: قلتُ لراهبٍ في دَيرِ حَرْمَلَـة[١٠١]، وأشـرفَ مـن صومعته: ما اسمك؟ قال: جريج. قلت: ما يحبِسُك؟ قال: حبستُ نفْسي عن الشهوات. قلت: أما كان يَسْتقيم لك أن تذهب معنا ها هنا، وتجيء ، وتمنعها الشهوات، قال: هيهات!! هـذا الـذي تصفُه قوةٌ، وأنا في ضعف. قلت: ولِمَ تفعلُ هذا؟ قال: نجدُ في كتبنا أنَّ بَدَنَ ابن آدم خُلِقَ من الأرض، وروحه خُلق من ملكوت السماء، فإذا أجاع بدنه، وأعراه، وأسهره، وأَقْمأَه[١٠٢] نـازعَ الـرُّوحُ إلى الموضع الذي خَرج منه، وإذا أطعمه وأراحه أخلد البَدنُ إلى الموضع الذي منه خُلِقَ، فأحبَّ الدنيا. قلت: فإذا فعل هذا يُعَجَّلُ له في الدنيا الثواب؟ قال: نعم، نورٌ يوازيه[١٠٣]. قال: فحدّثتُ بهذا أبـا سـليمان الداراني، قال: قاتَلَهُ الله، إنهم يَصِفُون.

قلت-القائل هو الذهبيّ-: الطريقة المُثْلى هي المحمديّة، وهي الأخذ من الطيبات، وتَنـاوُلُ الشـهواتِ المباحةِ من غيرِ إسراف، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾[١٠٤]. وقد قال النبي صلى عليه وسلم (لكنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وأَقُومُ وأنامُ، وآتي النِّساءَ، وآكلُ اللّحمَ؛ فمَن رَغِـب

---

(٩٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢٦٠- ٢٦١.

(١٠٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢٦١.

(١٠١) اسم موضع، كما يدل عليه السياق، و لم أقف على جهته.

(١٠٢) في لسان العرب: "قمأ: قَمَأَ الرَّجُلُ وغيرُه، وقَمُؤَ قَمْأَةً وقَمَاءً وقَمَاءَةً، لا يُعْنَى بقَمْأَة، ها هنا المرَّة الواحدة البتَّة: ذَلَّ وصَغُرَ وصار قَميئاً...". لسان العرب، ١٣٤/١، مادة (قمأ).

(١٠٣) أي: يسير معه حيث سار.

(١٠٤) ٥١: المؤمنون: ٢٣.

عن سنّتي فليس منّي)[١٠٥]؛ فلم يَشْرَع لنا الرهبانيّة، ولا التمزّقَ، ولا الوِصالَ، بل لا صومَ الدَّهر. ودينُ الإسلام يُسْرٌ وحنيفيةٌ سَمْحةٌ، فلْيأكل المسلمُ من الطيب إذا أمكنه، كما قال تعالى، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾[١٠٦]، وقد كان النِّساءُ أَحبَّ شيءٍ إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، وكذلك اللحم والحلـواء والعسل والشراب الحُلْوُ البارد والمِسْكُ،وهو أفضل الخَلْق وأَحبُّهم إلى الله تعالى. ثم العابدُ العَريُّ من العلم، متى زَهِد وتَبَتَّل وجاعَ، وخَلا بنفْسِهِ، وترَك اللحمَ والثمارَ، واقتصر على الدُّقَّة[١٠٧] والكِسْرةِ، صَفَتْ حَواسُّه ولَطُفَتْ، ولازمتْه خَطَراتُ النفسِ وسَمِعَ خِطاباً، يتولَّد من الجوع والسهرِ، لا وجودَ لذلك الخطاب-واللهِ-في الخارج، ووَلَجَ الشيطانُ في باطنه وخَرَج؛ فيعتقدُ أنه قد وصَل، وخوطِبَ وارتقى؛ فيتمكن منه الشيطان، ويوسوسُ له، فينظرُ إلى المؤمنين بعينِ الازدراء، ويَتذكر ذنوبَهم، ويَنظرُ إلى نفسه بعينِ الكمالِ وربّما آلَ به الأمرُ إلى أن يعتقدَ أنّه وَلِيٌّ، صاحبُ كرامات، وتمكُّنٍ، وربّما حصلَ له شَكٌّ، وتزلزَلَ إيمانُهُ.فالخَلْوَةُ والجوع "أبوجاد"[١٠٨] الترهُّب،وليس ذلك من شريعتنا في شيء. بلى، السلوك الكامل هو الورَعُ في القوتِ، والورعُ في المنطق، وحفظُ اللسان، وملازمةُ الذكْر، وتركُ مخالطةِ العامة، والبكاءُ على الخطيئة، والتلاوةُ بالترتيلِ والتدبُّرِ، ومَقْتُ النفسِ وذمُّها في ذاتِ الله، والإكثارُ من الصوم المشروع،ودوامُ التهجُّد، والتواضعُ للمسلمين، وصلةُ الرحِمِ، والسماحةُ وكثرةُ البِشْرِ، والإنفاقُ مع الخَصاصة، وقولُ الحق المُرِّ برفْقٍ وتُؤَدَةٍ، والأمر بالعُرْف، والأخذُ بالعفْوِ، والإعراضُ عن الجاهلين، والرباطُ بالثَّغْرِ، وجهادُ العدوِّ، وحجُّ البيت،وتناولُ الطيباتِ في الأحايين، وكثرةُ الاستغفارِ في السَّحَرِ.فهذه شمائلُ الأولياءِ، وصفاتُ المحمديِّين، أماتَنا الله على محبَّتهم))[١٠٩].

---

(١٠٥) الحديث في الصحيحين، وليس فيه (وآكل اللحم)، ولفظه عند البخاري: (...لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)، ح ٥٠٦٣، النكاح، وجاء ذِكر اللحم هنا عن النبي ﷺ في تفسير ابن كثير، ٢/ ١١٩، و٢/ ٦٨٣، وفي ثبوت هذه اللفظة فيه نظر، والله أعلم.

(١٠٦) ٧: الطلاق: ٦٥.

(١٠٧) هي مجموعةُ بهاراتٍ وأبازير، تُخلط، وتُدَقّ، ويؤكل بها الخبزُ، ولا تزال معروفةً في الحجاز إلى اليوم!. يُنظَر: لسان العرب، مادة: دقق، ١٠/١٠١.

(١٠٨) مِن قولهم: أبجد هوّز.

(١٠٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٠-٩١.

خاتمةُ هذا الموضوع:

في نهاية الحديث عن هذا الموضوع، يتعيّنُ علينا أن نَقِفَ عند واجبنا، والدروسِ والعبر التي يشهدُ بها جهود أولئك الأئمةِ الأسلافِ الصالحون، وعنايتُهم بالسنة، ويشهدُ بها منهجهم الذي ساروا عليه في أداء مهمّتهم.فماذا عسى أن نقول بعد أن وقفنا على طرفٍ موجزٍ جدا من هذا التاريخ الحافل بالعلم، والنور، والهداية؟!.ليس أمامنا الآن إلا أن نلتفت إلى أنفسنا، وإلى واقعنا، وإلى واجبنا.

فهذا هو التاريخ يا أخي، الذي سطّره الأسلاف الصالحون، إنهم أسلافك يا أخي، إنهم أجدادك، إنك تنتسب إليهم، وتنتمي إليهم، إن لم يكن ذلك بسلسلة النسب فبوَشيجةِ الدِّين، والإيمان بالله تعالى وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم!.لقد سطّروا هذا التاريخَ المضيء، التاريخَ المفخرةَ، لقد سطّروه، ليس بأقلامهم، فحسب، ولكن بإيمانهم أيضاً، وأخلاقهم، وأعمالِهم، وبدمائهم وأرواحهم!.فهذا هو التاريخ، وهذا هو العِلم، والهدى، والنور، والإيمان! فماذا عن الحاضر والواقع؟!.ماذا عن واقعك أنت أيها الأخ القارئ أو المستمع؟!.ماذا عملت؟!.وماذا ستعمل؟!.وما الفائدة التي جَنَيتَها مما عَلِمتَه من هذه الحقائق؟!.هل سيتحول ذلك في ذهنك وفي ذاكرتك وواقعك إلى تاريخٍ جميلٍ فحسبُ؟!.

أم سيتحول إلى علمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، يَشْغلانك عمّا دُونهما من شئون هذه الحياة الدنيا؟!.

هل سيتحول علمك إلى مَوْطن القدوة فيما جاء عن الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى، حين قال عن جلوسه للتحديث عن رسول الله صلى الله علية وسلم ((لمّا عزمتُ على التحديث -واللهُ المطّلعُ، أنه ما حملني على ذلك حبُّ الرئاسة والتقدم، بل قلت: متى أروي كلَّ ما قد سمعته، وأيّ فائدة في كوني أُخَلِّفُهُ بعدي صحائفَ؟!- فاستخرت الله، واستأذنتُ أعيانَ شيوخي، ورؤساء البلد، وطُفْتُ عليهم، فكلٌّ قال: ومَنْ أحقُّ بهذا منك؟! فشرعتُ في ذلك في سنة ثلاث، وثلاثين))[110] أي: وخمس مئة؟!.

إنه لا يصح لنا أبدا، يا أحفاد أولئك الأئمة، أن نَغْفُلَ عن الدروس والعبر في هذا التاريخ الحافل بالفضائل؛ وذلك لأنهم أسلافنا الصالحون، ولأن هذا التاريخ-من حيث هو- قد امتدّ عملاً ووثائق لا يتطرق إليها الشك تنقّلتْ إلينا عِبَرا عَبْرَ القرون، حتى وصلتْ إلينا، وكأنها تاريخٌ وواقعٌ معا، نشاهدهما، ونراهما، ونقرؤهما، فكأن هذا التاريخ قد تحوّل إلى واقع، يراه كل مَنْ يريد أن يُبْصِرَ،

(١١٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٤٥٧.

ووَصَلَ إلينا هذا الدين بسبب هذا التاريخ، أُوثقَ ما يكون غضا طريا كما نَزَلَ على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فلا يستقيم أن نَغْفل، أو ننسى الدروس والعبر في عنايتهم بالسنة، وفي جهودهم، وفي منهجهم.

وختاما لعلني أتذكر، وأعي، ولعلك يا أخي تتذكر وتعي:

- إخلاصَ أولئك الأئمة من المحدّثين، ونُدْرك واجبنا تجاه الإخلاص المطلوب منّا، فنكون مخلصين.
- ولعلنا نتذكّر اعتدالهم، وفقههم، ونُدْرك واجبنا تجاه هذا المطلب الشرعيّ المهم.
- ولعلنا نتذكر أخلاقهم الحميدة، ونَلْتفت إلى واجبنا في أنفسنا تجاه هذا الخلق الفاضل.
- ولعلنا نتذكر آثارهم ومؤلفاتهم، فنَعُدّها من حُججِ الله علينا، فنقدّرها حق قدْرها، ونقوم بواجبنا تجاهها.
- لعلنا نتذكر ذلك كله، ونحوّل الذكرى إلى يقينٍ، وعلمٍ، وعملٍ، فَنَصِلَ الحاضر بالماضي: إيماناً وعلما، وخلقا وعملاً وتُقىً.اللهم جنّبنا الزلل، وحقّقِ الأمل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- أبجد العلوم، لصديق بن حسن القنوجي، دمشق، ١٩٧٨م.
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، -٧٣٩هـ، بتحقيق كمال يوسف الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط.الأولى، ١٤٠٧هـ.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي.
- تاريخ دمشق، للحافظ المزي، مخطوطة المكتبة الظاهرية.
- تذكرة الحفاظ، للذهبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ الطبع، (مصوّرة دائرة المعارف العثمانية).
- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط.١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- تهذيب الكمال، للحفظ المزّي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط.٤، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- توثيق النصوص وضبطها عند المحدِّثين، د.موفق عبد القادر، مكة المكرمة، المكتبة المكية، ط.١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، الدمام، دار ابن الجوزي، ط.٢، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.
- الحلية، لأبي نعيم، بيروت، دار الكتب العلمية.
- دراسات في الحديث النبوي، محمد مصطفى الأعظمي، الرياض، مطابع جامعة الرياض، بدون تاريخ.
- الرسالة المستطرفة، للكتاني، دمشق، دار الفكر، ط.٣، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م، وقد طُبع عدة طبعات بعد هذه الطبع.
- سنن ابن ماجه، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- سنن الترمذي، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط.٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط.١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- صحيح ابن حبان، (ترتيب ابن بلبان)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط.١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- صحيح البخاري، (نسخة فتح الباري)، القاهرة، المكتبة السلفية ومكتبتها، ١٣٨٠هـ.
- صحيح مسلم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط.١، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط.١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب السبكي، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط.١، ١٣٨٣هـ -١٩٦٤م.
- علوم الحديث، لابن الصلاح، بتحقيق نور الدين عتر، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ط.٢، ١٩٧٢م.
- عناية المحدثين بتوثيق المرويات، د.أحمد محمد نور سيف، بيروت، دار المأمون، ط.١، ١٤٠٧هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، القاهرة، المكتبة السلفية ومكتبتها، ١٣٨٠هـ.
- فهرسة، لابن خير، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن: أبو بكر محمد بن خير ابن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي، (٥٠٢-٥٧هـ)

(١١٠٨-١١٧٩م)، نشره "فرنسشكه قداره زيدين"، وتلميذه "خليان ربَارة طرغوه"، ط.٢، ١٢٨٢هـ-١٩٦٣م.

- فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- المجروحين، لابن حبان، حلب، دار الوعي، ط.١، ١٣٩٦هـ.

- المستخرج على صحيح مسلم، لأبي نُعيم، ط. دار الكتب العلمية، ط.١، ١٩٩٦م.

- المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بمصر، بإشراف عبد السلام هارون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

- "نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء"، محمد حسن عقيل موسى، جدة، دار الأندلس، ط.١، ١٤١١هـ -١٩٩١م.

- "النهاية في غريب الحديث والأثر"، ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري، تحقيق محمود محمد الطناحي، د.ت.م. نشر المكتبة الإسلامية.

- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، اعتناء "هلمون رينز"، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.

- الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، لأبي شهبة، جدة، عالم المعرفة، ط.١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.